مذكرات مفتش تربوي

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتـــاب: مذكرات مفتش تربوي
المـــؤلـــف: عزيز أمعي
موضوع الكتاب: سير تربوية
عدد الصفحات: 220 صفحة
عدد المـــلازم: 13.75 ملازم
مقاس الكتـاب 17*24
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-93-1

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

مذكرات مفتش تربوي

تأليف

عزيز أمعي

عطاوي
للإنتاج الفني

«أنا لم أكتب إلا ما رأيت أو سمعت»

_ أرنست هيمنجواي

تقديم

فجأة ركبني جنون التحدي، تملكتني رغبة جارفة في أن أجترح ما لم يسبق لأحد من زملائي المفتشين اجتراحه قبلي، كتابة مذكرات تخلد لتجربتي المتواضعة التي راكمتها طيلة أربعة عقود في مجال التعليم. قضيت عشر سنوات منها في القسم، والباقي أمضيته في مهنة التفتيش التربوي.

بدأت هذه الفكرة تطاردني، مع دنو أجلي العملي كمفتش تربوي. كانت السنوات تتقلص، والتقاعد أصبح على مرمى سنين جد قليلة، قلت بيني وبين نفسي: لِمَ لا أستجيب لهذه الرغبة الملحاحة وأكتب مذكرات؟ كان بإمكان غيري من المفتشين السابقين أن يكتبوها، لكن ولا أحد منهم فعل.

يتقاعد كل سنة عشرات المفتشين، بعضهم يخلد إلى الراحة، والبعض الآخر يتشبث بالمهنة في المؤسسات الخصوصية، ولا عيب في ذلك، فما دامت القدرات الجسدية والعقلية قادرة على العمل، فلم لا يحارب الإنسان البطالة ويضيف إلى تقاعده أجرًا إضافيًا؟

ولكي أكون صريحًا وصادقًا مع قرائي، أعترف أن فكرة كتابة مذكرات مفتش تربوي فكرة جسورة، مغرية ومخيفة أيضًا. مصدر

الإغراء فيها هو أنها ستفسح لي المجال لخوض تجربة كتابية جديدة، وكل كاتب يحلم بأن يطأ أرضًا أدبية عذراء لم يسبقه إليها أحد.

كتبت الرواية، وأصدرت منها عشرة عناوين. وأصدرت مجموعة قصصية وديوان شعر. كتابة مذكرات فرضها علي دنو تقاعدي، وقررت أن أخوض تجربتها، وهي مخيفة، وتتطلب التروي والحكمة، لأن سؤالًا بحجم سلسلة جبال الهملايا كان ينتظرني وهو ينظر إليَّ بعينيه الماكرتين، يسألني في صمت صاخب: ماذا تريد أن تقول؟ ما مضمون بوحك؟ ما الذي سيجعل قُرّاءك يخصصون لك بعضًا من وقتهم لقراءة تجربتك الطويلة في مجال التعليم؟ ما هي الإضافة النوعية التي ستقدمها تجربتك للممارسة التأطيرية بشكل خاص والمنظومة التربوية بصفة عامة؟

كدت أستسلم لهذه الأسئلة المثبطة، وأتخلى عن كتابة هذه المذكرات، وبذلك أُريح وأستريح. لكن الإنسان ضعيف أمام رغباته، خاصة تلك التي تستهدف الغواية، أو تحدي الذات. وبعد تفكير دام لوقت غير قصير، قررت المضي قدما في محاولتي. قد أخفق نعم، لكن سأكون قد حاولت، و نلت أجر من حاول وفشل، وإذا نالت هذه المذكرات رضا القراء فسيكون ذلك أسمى ما أرجوه وأتمناه، وبذلك أكون قد فزت بأجرين.

المذكرات غالبًا ما تكون حكرًا على رجال الدولة، خاصةً كبار السياسيين، وأشهر الأدباء، ممن حققوا مجدًا وشهرة عالمية.

يحب الناس أن يقرؤوا لهؤلاء الرجال المعروفين، ليستمتعوا بما عاشوه وكابدوه على طريق المجد، ويستفيدوا من تجارب أشخاص تركوا بصمة قوية في مجال تخصصهم. تجارب لا شك أنها قد تلهم الشباب، وتمنحهم الرغبة في تحقيق بعض مما حققه هؤلاء الرجال العظام، تجارب قد تلهم القارئ وتمكنه هو أيضا من الخروج من عتمة اللا وجود إلى شمس تحقيق الذات.

أنا وظيفيًا مفتش تربوي، والمفتش التربوي هو التطور الطبيعي للأستاذ، الذي كان يسمى قبلًا معلمًا، لا يعرف أو ربما يتجاهل الذين غيروا التسمية، إن اسم معلم أقوى وأخطر من اسم أستاذ. ما دليلي؟ سأجيب: أعطوني مفكرًا عبقريًا في عصرنا بمكانة أرسطو الذي لقب بالمعلم الأول، أُعطوني فيلسوفًا فذا بمكانة الفارابي الذي لقب بالمعلم الثاني. هذان المعلمان اللذان علما البشرية منطق التفكير العلمي، وظلت مبادؤهما العلمية خاصةً الأرسطية سائدة لأكثر من ألف سنة. إنهما الاستثناء الذي لا يقبل التكرار، الحكمة التي لا تتجاوزها إلا حكمة الأنبياء. سيقول قائل: لا مقارنة مع وجود الفارق، أجيب: ربما، لكن من يخرج بعد الله البشر من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة؟ أليس المعلم؟ فكل معلم هو بصيغة أو بأخرى أرسطو تلاميذه. المشكلة ليست في التسمية، المشكلة هي: كيف نجعل المهنة جذابة مغرية؟ وبجعلها كذلك يصبح المعلم موظفًا كغيره من الموظفين في مختلف الإدارات

الأخرى، محترمًا ومقدرًا من قِبَل كل فئات المجتمع.

من هـذا المنطلق كنت وما زلت أحب تسـمية معلم، وإن كنتُ قد التحقت بهذه المهنة مرغمًا، وأحاول أن أظل كذلك، عن طريق الأدب والكتابـة الروائية، التي هي في العمق كتابة أرسـطية، تبتغي المساهمة في نشر المعرفة، وفتح آفاق أرحب أمام القارئ.

التحـدي الآخـر الـذي واجهني وأنا بصـدد الإقدام علـى كتابة هذه المذكرات هو: ما الذي سـأكتبه؟ وهل هناك حقا ما يمكن أن أرويـه؟ وقـد قضيت في مهنة التعليم كأسـتاذ ومفتـش أربعة عقود بالتمام والكمال. أم أنني مثل كولونيل الكاتب الكولومبي الشـهير (غابرييل غارسـيا) الذي عنون إحدى رواياتـه بـ «ليس للكولونيل ما يحكيه»، لأسـقط نفس العنوان على محاولتي، وأسمي النص بـ «ليس للمفتش التربوي ما يحكيه».

عدم وجود مذكرات لمفتشـين سـابقين هو مـا جعلني بالضبط أحسم أمري وأقرر كتابتها. محاولتي على الرغم من جسارتها كما أسـلفت، لن تكون في مستوى جسارة المغامرين الذين أفلحوا في مـا لم يفلح فيـه غيرهم من قبل، كنجاح الطيار الأمريكي (تشـارلز لندبـرغ) في عبور المحيط الأطلسـي على متـن طائرة قادها وحده سـنة 1902. أنـا كتبت هـذه المذكـرات وأنا جالس على كرسـي أمامي حاسـوبي، وقدح من القهوة السـوداء. لا مـوج ولا أنواء أو عواصـف هوجـاء قد تدمـر مركبتي، وحيتـان تنتظرني فـي أعماق

البحر. نعم ستكون هناك حيتان صغيرة في انتظاري لتنتقدني، لكن لا بأس، الأمر طبيعي، بل أراه ضروريًا جدًا.

ما شجعني على كتابة هذه المذكرات أيضًا هو أنني ومنذ وقت غير قصير كسرت جدار الخوف من اجتراح الكتابة. لقد نشرت حتى الآن كما أسلفت العديد من الكتب، وبذلك تخلصت وتمردت على الرقيب الذاتي والاجتماعي الذي يخشاه من لم يقتحم بعد مجال الكتابة. تجاوزت منذ زمن قول الكاتب الروسي (غوركي): إذا أردت أن تفضح نفسك فاكتب كتابًا. لقد انتهى الأمر، وفضحت نفسي سنة 2014، حين أصدرت روايتي الأولى، الموسومة بالزغاريد الصادرة بدار النشر (ضفاف) بلبنان، وهي الرواية اليتيمة عن قبائل بني وراين. أعجب بها من أعجب وانتقدها من انتقد، وكلا الموقفين منحني القدرة على ألا أبالي حين أكتب، ولا أبالي حين أخطئ، لأن كل خطأ كان وما يزال بمنزلة دافع قوي للتصحيح والتعلم. والحياة مدرسة، لا نسلم ورقة الاختبار إلا عندما يحين أجلنا.

إذن أتوفر بكل موضوعية على مسوغات كتابة هذه المذكرات. و أشير بدءًا أنها ليست سيرة ذاتية. هذه الأخيرة سأتركها لوقت لاحق، ستكون أشمل وأعم وأجرأ ربما من مذكرات مفتش. ما بين يدي القارئ هي مذكرات وظيفية، أي شهادات حاولت أن أقصر مضمونها على تجربتي في مجال التعليم كأستاذ ومفتش.

أكتفي بهذا القدر بالنسبة للمقدمة، وأدعو عزيزي القارئ ليأخذ مكانه، ويضع حزام السلامة، ليرافقني على متن مركبة مذكراتي. أتمنى أن يكون لديه ما يكفي من الصبر ليتابعني إلى آخر صفحة من سفري هذا. شكرًا مسبقًا.

بقايا صور

تعـج الذاكـرة ببقايا صور لأحداث مررنا بهـا في الطفولة، وقد كنـت وطنـت العزم على ألا آتـي على ذكرها في هـذه المذكرات، وأؤجلها حتى كتابة سـيرتي الذاتية، الموسـومة بـ «سـيرة كاتب»، حيـث الإسـهاب في التفاصيـل مباح ومشـروع، لكن تبيـن لي أن للطفولـة دخـلًا في ما سـأكتبه في مذكـرات مفتـش. المعلم الذي كنتـه والمفتش الذي أصبحته لـم يأتيا من عدم. فطفولة كل فرد منا تَحْكُم مصيره حتى نهاية حياته، وهذا الكلام ليس كلامي، بل كلام كثيرين، منهم سـيغموند فرويد الذي قال فـي كتابه: «إن الطفل أبو الرجل». أظن أن العالم الشـهير لم يجانب الصواب، فالطفل يظل ثاويـا فينـا، مهما ظننا أننـا ابتعدنا عنه وتخلصنا منـه. وحين نصبح آباء لأطفالنا يظل ما عشناه في طفولتنا من ظروف إيجابية أو سلبية المتحكم الأساسـي في نظرتنا إلى الوجود، وفي طريقة وأسـلوب تربيتنا لأبناء وأبناء غيرنا كمدرسين.

من هذا المنطلق أستسـمح القارئ الكريم أن أعود به إلى سـنة 1974، وهي سـنة أعتبرها حاسـمة في حياتي. لم تكن كذلك في صيرورة نشـأتي ونموي النفسـي فحسـب، بل كانـت اللحظة التي

ستغير مبكرًا مجرى سير طفولتي والقادم من أيام عمري. إنها السنة الجميلة التي أصبت فيها بفيروس القراءة، وأحببت الكتاب أكثر من أي شيء في هذا الوجود.

نعم منذ ما يقارب خمسة عقود، أصبحت مريضا جدًا جدًا بداء جميل ممتع اسمه «القراءة»، داء أتمنى ألا أشفى منه أبدًا، وأن يظل البصر والدماغ سليمين لأستمر في الاستمتاع به إلى أن يحين الأجل. وبعد الموت أتمنى أن ينالني وينال القارئ بعفوه، لتكون الجنة مُستقرَّنا الأبدي. لا أريد حور عين، ولا أنهارًا من الخمر، أريد أن أنهي قراءة كل الكتب التي لم يسمح العمر _ على حد قول محمود العقاد_ بقراءتها لا غير.

من المفارقات العجيبة أن الذي نقل إليَّ هذا الفيروس _ أي فيروس القراءة_ رجل أمي. لم يكن أحد أساتذتي في المؤسسات التعليمية التي درست بها، بل كان والدي. هذا الرجل الذي أنجبني، لم يلج مدرسة قط، ولم يتلقَّ تعليمًا نظاميًا، لأن زمن طفولته كان زمن الحماية الفرنسية، والعزوف عن المدرسة الفرنسية كان وسيلة من الوسائل التي لجأ إليها العديد من المغاربة لمحاربة المستعمر.

كان أبي عسكريًا، وكان دائم التنقل بين المدن. بعد أن قضينا سنتين في مدينة تازة، وكنا قد قدمنا إليها من الراشيدية، انتقل والدي مرة أخرى برفقة عناصر الكتيبة الرابعة التي كان ينتمي إليها إلى ثكنة «تاويمة» التي تتواجد في مدينة الناظور.

كان من المفروض أن نقيم معه في قرية «تاويمة»، لكنه لم يجد منزلًا وظيفيًا شاغرًا، فاضطر إلى أخذنا إلى قرية «أزغنغان» بضواحي مدينة الناظور، حيث كانت تتواجد ثكنة بناها الإسبان، وهجروها بعد حصول المغرب على الاستقلال. ترك الجيش الإسباني هذه الثكنة سليمة معافاة رائعة، تتوفر على كل مكونات العيش الكريم، بما فيها وسائل الترفيه كالمسبح والملاعب وحديقة عمومية رائعة. زرتها بعد عقود من رحيلنا عنها، فوجدتها خرابًا مشوهًا. حالها لا يسر عدوا ولا حبيبًا.

وتساءلت بأسى: أي أمة نحن أخرجت للناس؟

والدي رحمه الله كان اسمه «عسو»، وهو الاسم المختصر لدى قبائل بني وراين لاسم عبد السلام. والإعلال والإبدال في الأسماء عند أهلنا ظاهرة شائعة، تحتاج إلى علم الأسماء Onomatologie لفهم التحول السريالي الذي تعرفه أسماء الذكور والإناث معًا.

لم يكن اسم عسو وحده الاسم الشهير بين هذه القبائل، فاسم "محمد" كانوا يبدلون ميمه الثانية نونًا للتخفيف ليصبح "مُحَنْد"، "يامْنَة" من "آمنة" و"مُومُوح" إبداع آخر من اسم محمد، (واللي بغا يسطيني وما فهمتش نهائيًا قاعدة صياغته) هو اسم الإناث "تلو"، من أين جاء؟ وكيف نُحِت؟ واسم "بطاطة" الذي يقصد به اسم فاطمة، ما علاقة "بطاطة" بفاطمة؟ الله أعلم. أنا بدوري عرف

اسـمي تحريفًـا، فأبي ذبح الكبش على اسـم "عزيـز "، وكان أهلي جميعًا ينادونني بهذا الاسم. سأكتشف بعد سنوات عديدة أن ضابط الحالة المدنية الذي لم تكن تربطني به أي علاقة قرابة قرر أن يجعل اسـمي معرفًا، ليصبح العزيز بدل عزيز. أبي وبسـبب أميته لم ينتبه لتعريف الاسـم، وأصبحت باسـمين: واحد معرف والآخر نكرة.

نكتفـي بهـذه الأمثلـة للتحريـف الـذي كان _ ولم يعـد كذلك اليوم_ يعتري أسـماء أبناء قبائلنا، لنعُدْ إلى بداية اكتشـافي للكتاب والقراءة. كما ذكرت سـابقًا، قلت لم يحظَ الوالد بفرصة الالتحاق بالمدرسـة، ما إن بلغ سـن الرشـد حتى ودع مهنة أجداده التي هي رعي الأغنام، والتحق بسلك الجندية.

الانتساب إلى الجيش كان مفخرة ليس بعدها مفخرة لكل أسرة وراينية. أبناء بني وراين في هذه الفترة التاريخية كان أغلبهم يلتحق بسلك الجندية، كجندي بسيط لا أقل ولا أكثر بسبب أمية أغلبهم، وعلـى الرغم من ذلك فقد كان الأهل يفتخرون أيما افتخار بذلك، أن يصبـح مُحَنْـد وحَدّو وعَسـو وغيرها من الأسـماء جنـودًا فهذا يعني أن الأسـرة سـيزداد دخلهـا، ووضعهـا الاقتصادي سـيتغير، بفضل الحوالات الهزيلة التي يرسـلها هـؤلاء الأبناء، والتي كانت كافية لسـببي: الأول لم يكن التضخم وحشًا مفترسًا كما هو الحال اليـوم، والثانـي أن متطلبات الأهل كانت جد بسـيطة، وما يرسـله الأبناء يكفي وأكثر.

كـم من أسـرة كانت تعيـش الفقر المدقـع، وحين التحـق ابنها بالجيـش أصبـح الأب يملك بدل الحمار بغلـة أو بغلتين، وقطيعه الذي كان لا يتجاوز عدد رؤوسـه عـدد أصابع اليد الواحدة أصبح يتجـاوز المِئَـة، وليضمـن الآباء ألا يوقـف أبناؤهـم عنهم دعمهم المـادي يزوجونهـم في أقـرب فرصـة، فيصبح راتبه ملـكًا للأب، وزوجته خادمة إضافية في البيت، مهمتها الطبخ والكنس والإنجاب.

خـاض أبـي _ دون أن يعلـم لمـاذا_ الحـرب العالميـة الثانية، كمـا أُرسِـلَ إلى الهنـد الصينية ليقاتـل هناك. عاد بعـد أن وضعت الحـرب الكونيـة أوزارهـا. وبعـد رحيـل الاسـتعمار الفرنسـي أصبـح جنديًا فـي صفوف القوات المسـلحة الملكيـة. داخل هذه المؤسسـة سـيتلقى دروسًـا فـي محـو الأميـة، ليصبح قـادرًا على القراءة والكتابة. ومن حسـن حظي أن الوالد بدوره حين اكتشـف القـراءة أصبـح يجلب معـه _ لمتعته الشـخصية_ كتبًا إلـى البيت ليطالعهـا. وكثيـرًا مـا كنـت أراه فـي وقت فراغـه يقرأ أحـد أجزاء تلـك الكتـب التـي كان يحضرها معه. لـم أهتم للأمر فـي البداية، ولـم يكـن الكتـاب يعنـي لـي شـيئا، بـل كان يذكرنـي بالواجبات المدرسـية الشـاقة، والحفـظ الـذي كنـت أعاقـب بسـببه كلما لم أتمكـن مـن اسـتظهار قصيدة أو سـورة من سـور القـرآن الكريم.

كنا نهاب هذا الوالد، لا لأنه فرض هيبته بشكل تربوي، بل لأنه كان عنيفًا، والعقاب الجسـدي بالنسـبة له أفضل وسـيلة لمواجهة

تجاوزات أبنائه وزوجتيه، بهذا الأسلوب العسكري العنيف، فرض بفضل عنفه هيبة ظل أثرها راسخًا في وجداننا إلى أن فارق الحياة.

وإذا كان أسلوبه الصارم هو ما جعلنا نحن أبناءه نخشاه، ولا نحرك ساكنًا عند حضوره، فقد كان في بعض الأحيان _ وهي قليلة جدًا_ عندما يكون رائق المزاج كما يُقال، يروي لنا بعض القصص مما كان يقرأ في كتبه. كانت تلك القصص خيالية عجائبية بامتياز.

كان أبي يملك موهبة الحكي، وهذه الموهبة كانت منحة من السماء، ولم أصادف في حياتي شخصًا يتقن الحكي مثله. لن أنسى حكي تلك الأمسيات التي جعلتني أكتشف شيئًا عجيبًا وفاتنًا اسمه الرواية. أول متن روائي سيرويه لنا الوالد رحمه الله كان القصة المطولة للملك الحميري سيف بن ذي يزن. وكانت وقتها تعرض على أمواج الإذاعة المغربية باسم الأزلية. هذه الرواية اكتسبت شهرة كبيرة بين المغاربة، بسبب تحويلها إلى مسلسل إذاعي كان يبث في السبعينيات على المذياع، وكان الممثل المراكشي الشهير محمد حسن الجندي هو من يقدم شخصية سيف بن ذي يزن. هذا الممثل بصوته الجهوري الجميل أسر قلوب المغاربة، وكان أغلبهم لا يفوتون أي حلقة من حلقات مسلسل الأزلية الممتع.

حكي الوالد المتقن الجذاب كما قلت رفعني إلى ذُرَى عوالم عجيبة وغريبة. عوالم يسكنها البطل الخارق سيف بن ذي يزن وهو يحارب بمهارة وشجاعة لا نظير لهما عتاة الجن قبل

فرسان البشر، وينتصر عليهم جميعًا. بطل يسافر على ظهر الجن والعفاريت الذين طوعهم إلى جزر الوقواق البعيدة، وغيرها من مختلف أصقاع المعمور النائية.

كنت أود وأنا مأخوذ بما أسمع من الوالد ألا يتوقف عن الحكي وأن يستمر فيه دون توقف. تمنيت لوكان بإمكانه أن يمضي الليل بطوله يروي لنا المزيد من مغامرات بطلنا الخارق. أردته أن يكون كشهرزاد، يحكي ثم يحكي إلى أن تهل أنوار الفجر تعلن عن ميلاد يوم جديد. كان تحقيق أمنيتي أمرًا مستحيلًا طبعًا، بالنظر إلى طول الرواية، التي تتسع لأربعة مجلدات، ولأن الوالد كان عليه أن يخلد إلى النوم ليستيقظ باكرًا للذهاب إلى مقر عمله.

وبما أن أبي لم يكن حاضرًا على الدوام في البيت، أو قد يكون معكر المزاج وغير راغب في الحكي، فقد كنت أصاب بالإحباط، بسبب عدم إرواء غليلي من مغامرات بطلي الخارق سيف بن ذي يزن.

أمام عدم التزام والدي معنا بالحكي وإتمام الرواية إلى نهايتها، وبما أنني لم أعد قادرًا على الصبر والانتظار، لأنني كنت قد أدمنت حكيه، قررت أن أتصرف، وبعد تفكير غير قصير، بدا لي أن أسطو على الجزء الأول من الرواية لأستمتع بالقصة كما أريد وأشاء. سيقول القارئ: ولماذا التخطيط والتدبير؟ كان عليك أن تطلبها من والدك، وكان سيسمح لك بقراءتها. أجيب أن مثل هذا التصرف كان يعتبر تطاولًا على ممتلكات الوالد، وليس لنا الحق بأن نأخذ

شيئًا يخصه، أضف إلى ذلك أن الرواية كان يتركها في غرفة زوجته الثانية، ومنطق تعدد الزوجات في بلادنا يعطي الأولية للمرأة الثانية، لأنها الأحب إلى القلب، بسبب صغر سنها، والدخول إلى غرفتها دون إذنها مشكلة أخرى، وتجاوز موجِب لعقاب شديد.

من المفارقات العجيبة أيضًا أنه في هذه الحقبة التاريخية من عمري، كان يحدث عكس ما نريده نحن اليوم كآباء لأبنائنا. كان الأهل وقتها _ ليس كلهم طبعًا لكن أغلبهم_ يمنعون الأبناء من أن ينشغلوا بأي شيء يحول بينهم وبين دروسهم وواجباتهم المدرسية. الواجبات التي كان الأساتذة يكلفون بها التلاميذ كانت في نظر الأهل أهم من أي شيء بما فيها المطالعة. اليوم تبذل الأسر ما في وسعها لحث أبنائها على القراءة، وقلما وفقت في ذلك، بسبب انتشار الهواتف الذكية، ومختلف وسائط السوشال ميديا.

ولكي أنجح في تنفيذ مخططي، أو بالأحرى عملية السطو التي قررتها بنجاح، تربصت بزوجة أبي إلى أن تركت باب غرفتها مفتوحًا، فقمتُ باستغلال فرصة غيابها ودخلت بسرعة، وضعت المجلد تحت ثيابي وغادرت. حملت معي هيضورة (فروة كبش) وصعدت إلى مقصورة كانت مخصصة للحراس الجنود على السور السامق الذي كان يحيط بالثكنة.

في هذه "الكارطة"Garette التي كنت متيقنًا أنه لن يخطر ببال أي من أفراد أسرتي أنني أختبئ فيها، بدأت أولى خطواتي على

درب القراءة الذي سيتسمر حتى اليوم. التهمت الجزء الأول من رواية الأزلية التي يتجاوز عدد صفحاته الخمسمائة صفحة في وقت وجيز. لم يكن يحول بيني وبين إتمام القراءة سوى ضرورة الذهاب إلى المدرسة، أو حين يسدل الغسق ستاره، وتغرق الحروف والكلمات في يم العتمة، حينها أضطر إلى المغادرة.

لم تكن الرواية في الحقيقة مناسبة لسني، بسبب إغراقها في العنف، وحضور الجن بكثرة على امتداد صفحاتها، وحتى الإيحاءات الجنسية للبطل الذي لم تكن غزواته الجنسية أقل اثارة من غزواته وحروبه. واجهتني مشكلة أخرى كان عليَّ التغلب عليها، لكن مع مرور الوقت بدأت آلفها، هذه المشكلة تمثلت في بعض المفردات التي كنت أصادفها وأجد صعوبة في فهم معناها. الشعر العربي الفصيح الذي كان الأصمعي صاحب الرواية يورده في متن الرواية، كان يُصعِّب بدوره عليَّ المهمة. لكنني لم أستسلم وواصلت القراءة، مكتفيًا بخصوص الشعر بالإيقاع الموسيقي الأخّاذ.

شاءت الصدف ألا أبدأ كما يبدأ الأطفال الصغار، بقصص صغيرة موجهة للنشء. المدرسة لم تكن تولي جانب القراءة أهمية تذكر، باستثناء نص قرائي يتيم يفرض علينا أسبوعيًا، يكون أساسه تصريف الظواهر اللغوية المقررة في كل مستوى دراسي.

انطلقت أدنو _ وعلى الرغم من حداثة سني_ من المتون الأدبية الموجهة للكبار. لم يكن هناك بديل آخر، والصدفة جاءت

بالمتـون الصعبة إليَّ. جاء بها والدي إلى بيتـه ليطالعها. وبما أنني مـن الذين يؤمنون أن كل شـيء فـي حياتنا لا يتم صدفـة، اليوم أنا مقتنـع أن أبـي ما جـاء بتلك الكتـب إلا لكي أراها وأغـرم بها، كي أصـاب بفيروس القراءة. بفضل هـذا الأب _ رحمه الله_ وبفضل مهنـة التفتيـش تمكنـت مـن الوصول اليـوم إلى ما يقارب خمسـة آلاف كتـاب، مـا بيـن رواية وقصة وشـعر وكتب فلسـفية، والباب مـا يزال مفتوحًا للمزيد إن شـاء اللـه. منحني التفتيـش من الوقت ما سـاعدني على القراءة بكثرة. لذلـك أقول لو كان التفتيش رجلًا لشـكرته لسبب واحد وحيد، وهو أنني في رحابه تمكنت من قراءة هذا الكم من الكتب، والتي ما كنت لأقرأها وأنا مدرس في القسم.

قبـل أن أنهـي المجلد الثاني من الرواية سيكتشـف والدي أنني كنـت أسـرق كتبه. سـتخبره بذلك زوجتـه حين ضبطتنـي يومًا في غرفتها. أدركت من ملامحي المفزوعة أنني جئت سـارقًا. لا شك أنـه لم يخطر ببالها أنني دخلت غرفتها لأسـرق الرواية، ظنَّت أنني أريـد سـرقة نقود أو ما شـابه. قامت بتفتيشـي فاكتشـفت بحوزتي الجزء الثاني من الراوية.

حذرنـي أبـي من مغبـة الانصراف عن دروسـي، وقـراءة رواية سـتلهيني عـن التحصيـل الدراسـي، وربمـا تسـبب انصرافي إلى المطالعة في رسـوبي. وعلـى الرغم من أنني كنت أخشـاه، وعلى الرغـم مـن عتاب أمي التي انضمت إلـى رأي والدي لأول مرة في

حياتها، فقد واصلت السطو على أجزاء الرواية، والذهاب إلى المقر السري الذي كنت أختبئ فيه لكي أخلو إلى نفسي مع الكتاب.

عاقبني أبي، أشبعني ضربًا حين أيقن أنني لم أرتدع بالتي هي أحسن. وليقطع علي الطريق أوصى زوجته بأن تضع الكتب في خزانتها وتغلق عليها بالمفتاح. أُسْقط في يدي، حزنت كثيرًا، وأصبحت أعيش عذاب المدمن الذي حرم من مادة إدمانه.

لم أيأس وأصررت على الحصول على روايتي بأي ثمن. بدأت بيني وبين زوجة والدي لعبة، تشبه لعبة القط والفأر. أتربص بها إلى أن تنسى وتترك باب غرفتها مفتوحًا، فأنسل إليها لعلي أعثر على المفتاح في قفل الخزانة. كنت أشعر بالإحباط حين لا أعثر عليه في مكانه المعتاد، فأخرج مسرعًا قبل عودتها لأواصل مراقبتي. وكم كنت أفرح حين أكتشف أنها نسيت مفتاح الخزانة في القفل. أفتح باب طاولة الليل بسرعة، أحمل معي الجزء الذي كنت بصدد قراءته، وأغادر قبل أن تضبطني بالجرم المشهود.

من سوء حظي أن زوجة والدي لم تكن تستر عليَّ، فينتهي الخبر إلى الوالد، والنتيجة ملحمة عقاب آخر. وبما أن لكل متعة في هذه الحياة ثمنًا، فقد كان ثمن متعة القراءة أؤديه من ظهري كما يقول المغاربة. معاملة أبي القاسية لي لم تمنعني من مواصلة سرقة مجلدات الرواية، إلى أن تمكنت من قراءة الأجزاء الأربعة كلها.

ستستمر الحرب الضروس بيني وبينه حول الكتب. كان

بإمكانـه أن ينهيها بالتوقف عن اسـتقدام تلك الروايـات العجائبية الرائعة إلى البيت. لكنه لم يفعل. سـيأتي مرة أخرى برواية جديدة موسومة بـ "حموة البهلوان". بطلها لم يكن من طينة سيف بن ذي يزن البطل الخارق الذي يقهر الجن والإنس معًا. تيمة هذه الرواية الملحمية كانت قريبة نسـبيًا من سـابقتها، لكن كاتبها لم يستحضر الجن، اكتفى بالبشـر كأبطال لعمله الأدبـي. الرواية بدورها كانت تتألـف من أربعة أجـزاء. والغريب في الأمر أننـي وأنا صغير كنت أنتشـي وأفرح كما يفرح فقير معدم عثر على كنز صغير كلما كانت مجلـدات الروايـة عديـدة. كثرة المجلـدات تعني أنني سأسـتمتع بوليمة أدبية لعدة أيام.

ما إن وقعت عيناي على الكنز الجديد، حتى قررت أن أسـرقها كما سرقت الرواية السابقة. لقد سبقت الكاتب الأسترالي ماركوس زوساك، صاحب رواية سارقة الكتب، والتي كانت تتحدث عن فتاة تدعى "ليزيل ميمينغر"، تقوم بسرقة الكتب لمواجهة أهوال الحرب العالمية. قد تكون رواية ماركوس متخيلة، وظف الكاتب الحادث الطريـف الذي هو سـرقة الكتب من قبل طفلة، ليشـير إلى بشـاعة الحرب، التي كانت القراءة ترياقًا ناجحًا لمجابهتها. أنا كنت سارقًا، لا لمواجهة حرب ما، بل لأنني وبكل بساطة فُتِنتُ بعوالم الرواية.

أنـا لم أكـن أعرف مـا الـذي دفعنـي دون إخوتي إلـى مواجهة جبـروت أبـي للحصول علـى روايـات، أصبحت قراءتها بالنسـبة

لي مسألة وجودية. بعد محاولتي الأولى في الوصول إلى الرواية الجديدة، حاول أبي الذي حدس ما كنت أضمره، أن يقنعني بالتي هي أحسن أنه لا يمنع عني الكتب دون سبب، بل يمنعني من قراءتها خوفًا عليَّ من أن أهمل دروسي وأرسب في دراستي. كلامه لم يقنعني وأنَّى لمخلوق أن يقنع عاشقًا أعماه الحب. حبي للكتب كان قد تمكن مني وانتهى الأمر، وكنت على استعداد بأن أضحي بالمدرسة من أجلها.

المهم أنني نجحت في إتمام قراءة أجزاء الرواية الجديدة، كما فعلت مع الأولى، وكابدت في سبيلها آلامًا جسامًا. وكما توقع والدي فقد رسبت في نهاية السنة، وأعطيته هو وزوجته ووالدتي الدليل على أنهم جميعًا كانوا على صواب، وأنني بالفعل كنت أستحق العقاب الذي نلته من الوالد.

سيستسلم هذا الأخير بعد انتقالي إلى السلك الإعدادي، حين أيقن أن دائي عضال لا يمكن الشفاء منه. ستستسلم بعد ذلك زوجتي أيضًا حين اكتشفت أنها تزوجت رجلًا متزوجًا قبلها من الكتب. سيوافق أبي بعد توسل ملح أن يأتيني برواية تتألف من سبعة مجلدات. إنها ملحمة أبي الفوارس، الشاعر الفذ عنترة بن شداد. لعدة أسابيع وأنا أتماهى مع البطل الأسمر وحبيبته عبلة، التي من أجلها قاوم وحارب لينال حريته، مرغِمًا عمَّه على تزويجه بمحبوبته عبلة. سبعة مجلدات وعدة أسابيع وأنا أرافق البطل

الذي سيسجل اسمه في تاريخ الفروسية والأدب بمداد من ذهب، والذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما وصف لي رجل وأحببت أن أراه إلا عنترة بن شداد".

في سنة 1975 سيعلن العاهل المغربي الراحل الملك الحسن الثاني عن تنظيم مسيرة خضراء لاسترجاع الصحراء المغربية. ستندلع مواجهة مسلحة بين الجيش المغربي ومليشيات البوليساريو المدعومة من الجزائر والقذافي. سيحتاج المغرب لدعم جنوده، مما سيضطر أبي للرحيل برفقة كتيبته إلى ضواحي مدينة "الزَّاك" بالصحراء المغربية. وقبل أن يلتحق بمقر عمله الجديد أعادنا إلى قرية تاهلة.

برحيل الوالد نضب ذلك المعين الذي كان يزودني بين الفينة والأخرى بالكتب. قريتنا وقتها لم تكن فيها مكتبة عمومية يمكن زيارتها واستعارة الكتب منها. لن يقرر المجلس القروي توفير مكتبة عمومية إلا في السنتين الأخيرتين من دراستي بسلك التعليم الثانوي.

من حسن الحظ أن تاجرًا كان يأتي من مدينة فاس كل يوم أحد، وهو يوم السوق الأسبوعية بالقرية. ينصب قيطونه، يبيع من كل شيء صنفًا، بما فيها كتب صغيرة رخيصة الثمن موجهة للأطفال. أول كتاب اقتنيته من عند هذا التاجر بثمن بخس اليوم ومهم وقتها _ بدرهمين فقط_ كان قصة من سلسلة قصص طرزان مترجمة إلى العربية، مؤلفها الكاتب الأمريكي "إدغار رايس بوروس". قرأتها

في يومها، وكان عليَّ أن أنتظر إلى السوق المقبلة كي أشتري جزءًا آخر. في السبعينيات كانت النقود قليلة، والحصول على درهمين لم يكن مهمة سهلة.

طرزان، أو الرجل القرد كما كان يسمى، قدم نموذجًا جديدًا لبطولة خارقة بدورها، لكن بأسلوب ومجال مختلفين. طرزان نموذج لبطولة الإنسان حين يكون عليه أن يواجه أهوال الطبيعة المتمثلة في الغابة ومخاطرها كي يبقى على قيد الحياة. مواجهة الحيوانات الضارية، والمغامرين الأوربيين والأمريكيين، الذين يأتون إلى الغابة الإستوائية للبحث عن كنوزها، ولا يتورعون عن قتل الحيوانات والسكان الأصليين على حد سواء، كانت مهمة البطل الذي حمل على عاتقه مهمة حماية كنوز الطبيعة، وقبيلة القردة التي ينتمي إليها.

لم يكن التاجر الشيخ الذي يأتي من مدينة فاس مصدري الوحيد في الحصول على الكتب، بحثت عنها أيضًا لدى زملائي التلاميذ. ما إن يخبرني أحدهم أن لديه في البيت كتابًا، كيفما كان نوعه أوموضوعه، حتى تصبح مهمتي الأولى والأخيرة هي إقناع زميلي بأن يعيرني ذلك الكتاب.

أذكر أنني مرضت يومًا، فأخذني الوالد والوالدة إلى الطبيب في مدينة فاس. في قاعة الانتظار كانت تجلس سيدة إلى جوار أمي، وطفقتا تتحدثان لتزجية الوقت قبل أن يحل دورنا ودورها. أخبرت

كل واحـدة منهما الثانية بسـبب قدومها إلى الطبيب. نصحت تلك السيدة والدتي بأن تأخذني إلى "عَوَّادة" ذاع صيتها، توجد في حي ابن دباب بالمدينة. هذه العوادة حسـب ما أكدته السيدة أفضل من ألف طبيب، مؤكدة لأمي أن مشكلة ابنها ستجد حلًا عندها.

وبالفعـل بعـد أن غادرنـا عيادة الطبيـب اتجهنا إلـى ابن دباب، سـألنا عن المرأة فلم نجـد صعوبة في العثور على بيتها. اسـتقبلتنا فتاة في عقدها الثالث، أدخلتنا إلى قاعة فسيحة مملوءة عن آخرها بالـزوار. كان زبائـن المرأة أكثر بكثير من زبائـن الطبيب الذي أتينا من عنـده. عندما حان دوري أخذتني الفتـاة التي كانت تلعب دور الممرضة إليها، أجلسـتني أمامها، موليًا ظهري لها، وطفقت تمسد بطنـي، وتتظاهر بأنهـا تضع ما تخرجـه منها في إنـاء (بانيو). حين انتهت طلبت من أمي التي كانت معي أن تعيدني إليها بعد أسبوعين.

وبمـا أن إجازة والدي قـد انتهت وعاد إلى ثكنتـه في الصحراء المغربيـة، فقـد اقترحـت علـيَّ أمـي أن أذهـب بمفـردي لتعايننـي العوادة مرة أخرى. وافقت، أعطتني النقود، كانوا خمسـين درهمًا: عشـرين درهمًا للسيدة الطبيبة، والباقي أصرفه ذهابًا وإيابًا من قرية تاهلة إلى مدينة فاس.

حيـن وصلـت إلـى مدينـة فاس مـررت بالصدفـة بسـاحة تباع فيها الكتب المسـتعملة. لفت انتباهي كاتب اسـمه جرجي زيدان، متخصـص فـي كتابـة الروايـات التاريخيـة. وبدلًا مـن أن أواصل

طريقي نحو العوادة، اشتريت روايتين بعشرين درهمًا لهذا الروائي، وعدت إلى قريتي. سألتني أمي حين وصلت: هل فحصتني تلك السيدة؟ وماذا قالت لي؟ أجبت بالإيجاب، وأخبرتها أن السيدة أكدت لي أنني شُفيت.

القصص التاريخية لجرجي زيدان كان عددها إحدى وعشرين رواية، قرأتها الواحدة تلو الأخرى، لأنها بالفعل كانت ممتعة جدًا. سأتعرف بعدها على الروائيين المصريين، أولهم صاحب جائزة نوبل نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وآخرون. وحين سيشتد عودي الأدبي ستتوسع الدائرة لتشمل كتابًا آخرين، من مختلف القارات: أوروبا والولايات المتحدة والصين، وعمالقة الرواية اللاتينية. لم تكن ترهبني الكتب التي تضم مئات الصفحات، فقد نشأت على التعامل معها، كان يكفيني أن تكون الرواية رائعة، كي لا أضعها حتى أنتهي منها ولو كانت صفحاتها بالمئات، وقد استمتعت برواية الزمن الضائع لبروست، وقد تجاوزت صفحاتها 2600 صفحة. نفس الشيء حدث مع الدون كيشوت، ثلاثية نجيب محفوظ، الإخوة كرامازوف، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والذي جعلني أكتشف كيف بنينا تخلفنا طوبة طوبة. هذا الكتاب يتألف من خمسة وعشرين مجلدًا، كل مجلد يضم أربعمائة صفحة وأكثر. أضفت إليه كتابين اثنين، وهما: تاريخ الطبري (من خمسة مجلدات)، والعقد الفريد (من سبعة مجلدات).

كانت الخلوة والانصراف إلى القراءة ثم الكتابة أحب شيء إلى نفسي، نوع من التصوف يرفع إلى ذرى عوالم من المتعة، لا يعرف لذتها ولا يستمتع بها إلا من ابتُلِيَ بحب القراءة. أسعد أوقاتي كانت تلك التي أقضيها مع كتاب يستحق القراءة. حينها ينتابني شعور لا نظير له. شعور العاشق الولهان الذي يلتقي بحبيبته بعد طول صبر وحرمان.

خلال مرحلة المراهقة، وحين كنت تلميذًا في السلك الثاني، كان يحلو لي في أيام العطلات الذهاب إلى مدشر اسمه "زادْرا" بضواحي قرية تاهلة. هناك كانت تقطن عمتي. كان هذا الدوار يقع على نهر اسمه "بوسافو". وفرة المياه في السنين الخوالي جعلت من المدشر جنة فوق الأرض. غابة من الأشجار المثمرة: برتقال ورمان وتين وعنب، عطاؤها لا حد له.

كانت السماء في تلك السنين وما قبلها كريمة لا تضن على الأرض بالغيث. أمطارها تستمر طيلة السنة، ولا تتوقف إلا في بداية شهر يوليو. لم يكن الجفاف قد زحف بردائه المعصفر إلى المغرب. سيتأثر هذا المدشر بالجفاف في نهاية الألفية الثانية ، لتقل مياه نهره وتصبح ضحلة بعد أن كان عمقها مهابًا.

من بين الصور التي بقيت عالقة بقوة في الذاكرة لتلك الزيارات، أنني أخذت معي ذات زيارة بعض الكتب من بينها رواية باللغة الفرنسية من 250 صفحة لا أذكر اليوم عنوانها، وغادرت

بيت عمتي صباحًا بعد أن تناولت إفطاري، وقصدت ما يسمونه "العَرْسَة"، وهي حديقة بها الكثير من أشجار البرتقال، والرمان، ودوالي العنب، والتين، وأشجار مثمرة أخرى. أخذت مكانًا تحت شجرة وارفة الظلال. فتحت روايتي وطفقت أقرأ. سرقني الوقت، لأن الرواية كانت رائعة حقًا، وعند وقت الظهيرة سمعت ابنة عمتي تنادي عليَّ لأتناول وجبة الغداء. لم أجبها، ظنت أنني ابتعدت كثيرًا. واصلت القراءة، وحين بدأ ذئب الجوع يعوي في وكر معدتي، أسكتُّه بتناول ثمار شجر البرتقال والرمان. لم أبرح مكاني إلا بعد أن أنهيت الرواية، ومن حسن الحظ أن الشمس تواطأت معي، لعلها تحب القراءة بدورها. تأخرت قليلًا، ولم يحل الظلام إلا بعد أن أنهيت الرواية.

بقايا صور

_2_

كنت أحلم وأنا أنتقل من كتاب إلى كتاب، ومن مستوى دراسي إلى آخر، أن أظل طالب علم إلى أن أحصل على شهادة الدكتوراة في تخصصين اثنين كانا الأقرب إلى قلبي: الأول هو الأدب العربي، والثاني الفلسفة. لكن حكمة الله اقتضت أمرًا آخر، وطريقًا سلكته لم يخطر ببالي قط. سيتوقف مشواري الدراسي مؤقتًا بعد حصولي على شهادة البكالوريا، لألتحق بسلك التعليم الابتدائي سنة 1984. سنوات طويلة بعد ذلك وبالتحديد في سنة 2001 سأعود إلى الجامعة كطالب موظف، بعد أن سمحت الوزارة لرجال التعليم بمواصلة دراستهم. سجلت نفسي في شعبة أم العلوم _ أقصد الفلسفة_ وحصلت بعد أربع سنوات لم أحضر فيها محاضرة قط، ولم أسمع ولو جملة من أي أستاذ، على شهادة الإجازة، تخصص علم النفس. سأعود للحديث عن هذه التجربة في حينه.

هل كان لي أن أختار طريقًا غير الطريق الذي مشيت فيه مرغمًا؟ لا أظن. حين يضعك القدر في بيئة معينة مشروطة بظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية معينة فإن قدرك يكون محسومًا أصلًا.

مـن ولـد وفي فمه ملعقة مـن ذهب ليس كمن ولـد وفي بيته بعض ملاعق من حديد.

لم أتخيل نفسي معلمًا أبدًا. ولم ألتحق بسلك التعليم الابتدائي عـن حب وقناعـة، كما كان يحلـو لبعض المرشـحين الذين كانوا يجلسون أمامي أن يقولوا عندما كنت مع زملائي المفتشين نجري لهم الاختبار الشفهي، كي يصبحوا أساتذة. كان هؤلاء المرشحون يزعمـون أنهـم يريدون الانتسـاب إلـى المهنة لأنهـم يحبونها. لا يمكـن أن ننكر أن هناك مـن جاء لمزاولة مهنـة التدريس عن رغبة وحب، لكن ومن خلال التجربة والملاحظة لعقود، يمكن أن أقول مطمئنًا إن فئة عريضة جاءت مرغمة، لسـبب واحد، وهو أن المهنة التي كانت جاذبة في الستينيات والسبعينيات وحتى الثمانينيات لم تعـد كذلـك، والنكات التي نُسِـجَت حول المعلم أكبـر دليل على المكانة المتدنية التي أصبح يعيشها في المجتمع.

القـدر كان لـه دور، وأنا قدري بطبعي في مسـار حياتي. وحين أصبحت مدرسًـا ومفتشًـا غالبًا ما كنت أتذكر دعـاءً رماني به أحد أسـاتذتي، هذا الأسـتاذ كان يدرسـنا مادة الفلسـفة، "السي محمد اللبي" أطال الله عمره، والذي من كثرة ما كنت أطرح عليه الأسئلة وأناقشـه بدافع من غروري القرائي قال لـي يومًا بالحرف الواحد: "الله يجعلك توقف فبلاصتي". وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة فاستجاب الله لدعائه.

الأستاذ محمد اللبي هذا، كان من الأساتذة الذين تركوا بصمة مهمة في حياتي، مع أساتذة أجلاء آخرين. لم أكن الوحيد المعجب بأسلوب تدريسه، فأغلب التلاميذ كانوا يكنون له التقدير والاحترام، فبفضل هذا الأستاذ تمكن التلاميذ من التصالح مع الفلسفة، بعد خيبة خلفها لدينا أستاذ قبله. هذا الأخير لم يكن خريج مدرسة تكوين الأساتذة، حصل على شهادة الإجازة، وجيء به إلى القسم عن طريق التوظيف المباشر ليدرسنا، وطيلة سنة ما قبل البكالوريا، وهي السنة الأولى التي كانت تدرس فيها مادة الفلسفة، والرجل يهذي، لم نتمكن من أن نأخذ منه حقًا ولا باطلًا كما يُقال، ولولا أن سي اللُّبي الذي أنقدنا من تيهنا الفلسفي الذي عشناه مع زميله السابق، لما ربطت شخصيا حبل الود مع مادة الفلسفة، التي أعتبرها أروع ما أبدعه العقل البشري.

أظن أنني وزملائي كنا محظوظين لتتلمذنا في مرحلة التعليم الثانوي على يد فئة من الأساتذة الأكفاء، تميزوا بالرغبة في البذل والعطاء. كانت المرحلة مرحلة ما بعد الاستعمار الفرنسي، زمن رحيله لم يكن بعيدًا، والعالم أصبح مجزأً ما بين قوتين عظميين: المعسكر الرأسمالي ممثلًا في الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية قوية، والمعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي. أفكار كارل ماركس وصديقه فريدريك أنجلز وقائد الثورة البولشيفية لينين كانت حاضرة بقوة في الحرم الجامعي،

حيث كان يدرس أساتذتنا.

تشرب هؤلاء المدرسون بذلك الفكر التقدمي المناهض للهيمنة الإمبريالية، وحاولوا ممارسة قناعاتهم إجرائيًا لا نظريًا في المؤسسات التي كانوا يشتغلون فيها. لم يكونوا ينظرون إلينا كتلاميذ قُصَّر، بل كيافعين يجب أن تغرس فيهم تلك القيم الحداثية التقدمية، من أجل مغرب ديمقراطي يتوسمون في غده الديمقراطية والإنصاف.

بفضل هذه القناعات تجاوزت علاقتنا مع بعضهم أسوار المؤسسة التعليمة، وكنت وصديق لي نزور سي اللبي أستاذ الفلسفة، وأستاذ اللغة العربية الذي ينحدر من مدينة العرائش، وأستاذ اللغة الفرنسية من مدينة تازة، في مقر إقامتهم. أن يستقبلك الأستاذ في منزله في زمن كانت مكانة الأستاذ متميزة جدًا، يعتبر شرفًا ما بعده شرف.

الحياة الخاصة لأساتذتنا كانت لا تعنينا، كانوا أساتذة في المؤسسة، وبشرًا خارجها. نعم كانوا كذلك، لكن وضعهم الاعتباري كان يجعلنا ننظر إليهم ككائنات استثنائية لا يمكنها أن تجترح أخطاء الإنسان العادي. وقد فوجئنا جميعًا حين ألقى رجال الدرك القبض على أحد أساتذتنا في بيت دعارة وقدم إلى المحكمة. حج التلاميذ عن بكرة أبيهم إلى المؤسسة العدلية، ليتابعوا أطوار المحاكمة. كان هذا الأستاذ الأعزب من أطيب

خلـق الله، وكان محبوبًا مـن قبل المتعلمين، ليس فقط لكفاءته بل لحسـن تعامله. انتهت المحاكمة بسـلام، وكان القاضي متسـامحًا مع أسـتاذنا وحكم بإطلاق سـراحه. هلل الكل فرحين بنجاته. لم يؤثـر ما وقع في علاقة التلاميذ بأسـتاذهم، وتحولـت الحادثة إلى مجرد مزحة تثار بين الفينة والأخرى، ومع الوقت نُسيَتْ نهائيًا.

لم يكن هذا الأسـتاذ وحده من تورط بسـبب النساء، أستاذ آخر كان قد فقد زوجته، فأحب تلميذته، وكانت زميلة لي في السنة ما قبل البكالوريا. تقدم لخطبتها على سـنة الله ورسـوله، ولم يلقَ القبول من أهلها. فـرت الفتاة احتجاجًا على رفض والدها أن يزوجها من حبيبها. وجد أستاذنا نفسه في موقف لا يحسد عليه، خاصةً أن بعض زملائه كانوا يسـخرون منه، ويتندرون فـي المقاهي بوقوع زميلهم في غرام تلميذته. حين طفا الموضوع على السـطح، وعلم أستاذنا أنه قد بلغنا الخبر، صارحنا بكل شـجاعة بما حدث، وختم بقوله:

_ أعزائي التلاميذ، قد لا أصبح أستاذكم مستقبلًا.

تأثرنا لحاله، وتمنينا أن تنتهي قصة الحب الجميلة نهاية سعيدة. اسـتجاب اللـه لدعائنـا، عـادت زميلتنا، ونجح أسـتاذنا فـي إقناع والدها بالموافقة على ارتباطه بابنته، هذه المرة لم يعترض والدها. تزوج الحبيبان وانتهت الأزمة نهاية سعيدة. سيثمر هذا الزواج عن ابنتين إحداهما شـاء القدر أن تكون مدرسة في إحدى المؤسسات التعليمية التي كنت أشرف على تأطيرها.

لـم يكن عيبًـا أن يتزوج الأسـتاذ مـن تلميذته، الزواج في سـن مبكرة بالنسبة للإناث كان أمرًا شائعًا وقتها. هناك من الأساتذة من وُفِّق في زواجه كما هو الحال بالنسبة للأستاذ المذكور، وهناك من كان ذلك الزواج وبالًا عليه، كما حدث لأسـتاذ لم يدرسني. تزوج تلميذة له حسناء، لم يعمر ذلك الزواج طويلًا، بسب إشاعة حامت حول شرفها، لينفصلا بعد أن أنجبا ولدين.

ما حمدته لأساتذة بلدتنا هو أنهم تزوجوا جميعًا من التلميذات اللائي وقعوا في حبهن. كان قصدهم شريفًا، ولم يلهُ أي منهم بالفتاة التي أُغرِم بها، على عكس بعض الأساتذة الوافدين، ارتبطوا بعلاقات عاطفية مع تلميذات، تسلوا بهن، ثم انتقلوا إلى مدنهم ليتزوجوا بناتها.

من بين هؤلاء الأساتذة، أستاذ مادة الاجتماعيات الذي درسني في السنة النهائية من سلك التعليم الإعدادي، والذي كانت تربطني بـه علاقة وطيدة. زرته يومًا ووجـدت تلميذة زميلة لي بثياب النوم في بيته. الغريب أنه لا الأسـتاذ ولا التلميذة شعرا بالحرج أو القلق لأنني اطَّلعتُ على سـرهما. لَمْ أفشِ السـر، واحتفظت به لنفسـي. والمصيبـة أن هـذا الأسـتاذ كان لديه علاقة غرامية أخـرى بتلميذة تحبـه إلـى حد الجنـون. سأكتشـف ذلك بعـد انتقالنا إلى السـلك الثانـي. شـاء القدر لهذه الفتاة أن تكتري غرفـة في بيت صديق لنا، لأنها كانت تقطن في قرية بعيدة عن مدينة تاهلة. صارحتنا أنا وهذا الصديق بهيامها بأستاذنا، وحلمها بأن تصبح زوجته.

لكـن أمـل صديقتنـا خـاب، فقـد شـارك الأسـتاذ فـي الحركة الانتقاليـة ورحل إلـى مدينة وجدة ليتـزوج الفتاة التـي اختارها له أهله. سـتواصل زميلتنا سيرها على طريق التعاسـة، حاملة جراحًا وألم حب عاصف لم يثمر عما كانت ترجوه. سيهتم بها أستاذ آخر كان يدرسـنا اللغـة العربية. كاشـفنا هذا الأخير أنـا وصديقي بحبه لزميلتنا ورغبته في الارتباط بها. أخبرناها بنية الأسـتاذ، وأعلمناها أنه يريـد لقاءها. وافقت، وتم اللقاء في بيت صديقي. سـيخل هذا الأسـتاذ بـدوره بتعهـده، ليرحل كما رحـل الأسـتاذ الوجدي إلى مدينـة العرائش، دون حتى أن يعتـذر، لتطوى صفحة لخيبة أخرى من تلك الخيبات التي كتب لهذه الفتاة أن تعيشها .

حـظ هـذه الصديقة كان سـيئًا جدًا، فبعد حصولها على شـهادة البكالوريا، والتحاقها بجامعة الحسن الأول بمدينة وجدة، ارتبطت مرة أخرى بضابط عسـكري، برتبة نقيب. لم يغدر بها هذا الشاب، بل تقدم لخطبتها ووافق أهلها. سارت الأمور على أحسن ما يرام. وقبـل حفـل الزواج بأسـابيع قليلة توفـي الخطيب إثر حادثة سـير مروعة. حزِنَتْ عليه حزنًـا عميقًا، وارتدت لباس الحداد الأبيض، الذي ترتديه النسـاء المغربيات بعد وفاة أزواجهن عنهن. ذات يوم وبينما كانت تسير في الشارع بلباسها الأبيض دنا منها شاب أرعن، وهمس في أذنها قائلا:

_ "كلتيه".

صرخت الفتاة من شدة الألم الذي خلفه في نفسها قول ذلك الشاب، وسقطت مغشيًا عليها.

دخلت في نوبة اكتئاب حاد، ولم تتمكن من تجاوزها إلا بمشقة. لم تتزوج هذه الصديقة بعدها. أصبحت أستاذة، وهي اليوم في بداية عقدها السادس. في سنتي الأخيرة، أي السنة التي كتبت فيها هذه المذكرات، أسندت لي المؤسسة التي تعمل فيها. زرتها، وكان لقائي بها لقاءً مؤثرًا حقًا، لأن هذه السيدة كانت حقًا إنسانة طيبة، وكانت تستحق من الدنيا ما هو أفضل.

أعتذر للقارئ الكريم على الاستطرادات، لكني أكتب هذه السيرة بعفوية ومن القلب، ولا تكون الكتابة صادقة إلا إذا كانت تتمتع بهاتين الخصلتين.

ما كنت أحبه وأقدره أيضًا في بعض أساتذتي بسلك التعليم الثانوي خاصة، هو حبهم للكتاب. كنا نحن جيل الثمانينيات قد جنبنا الله شر وسائط السوشال ميديا، والهواتف الذكية، الحائل الأساس بين جيل اليوم والكتاب. لم يكن لدينا سوى التلفزيون بقناة واحدة، تنهي البث على الساعة الحادية عشرة ليلًا. لم تلتحق قناة الدوزيم بالركب إلا في سنة 1989، وكانت مشفرة.

الكتب التي كنت شغوفًا بها، والتي كنت أعاني من ندرتها، وجدتها فجأة عند هؤلاء الأساتذة. لن أنسى أبدًا يوم دخلت بيت أستاذ اللغة الفرنسية، وهو من بين أساتذتي الرائعين، واتصلت

بـه وأنا أكتب هذه المذكرات، أسـتأذنه في ذكر اسـمه في ثنايا هذه السـيرة، لكنه رفـض. لا أدري لمـاذا اعتذر. المهـم أنني احترمت قراره، وأحجمت عن ذكر اسمه. قلت وجدت لديه مكتبة لم يسبق أن رأيت نظيرًا لها. كانت مكتبة كبيرة ورائعة، بها عشرات الكتب، كلهـا بلغة موليير. تملكني شـعور هو مزيج من الانبهار والسـعادة الغامـرة بالكنز الـذي عثرت عليـه. تمنيت صدقًا لو أنني أسـتطيع قـراءة كل تلك الكتب دفعة واحدة. لم يبخل عليَّ أسـتاذي، وكان يعيرني الكتب لقراءتها. سـألتقي بهذا الأستاذ بعد عقود، وسأهديه إحدى رواياتي.

خـلال فتـرة الدراسـة الثانويـة، أطلقـت الإدارة ورشًـا إبداعية لتشـجيع التلاميـذ علـى الكتابـة. خصصـت لهـم مجلـة حائطيـة يعرضـون فيهـا إبداعاتهـم. شـكلت لجنـة مـن بعـض الأسـاتذة للإشـراف على ما ينتجه التلاميذ. سـاهمت فـي المجلة بقصتين، وكانتـا قصتين سـاذجتين طبعًا. واحدة من بنات أفـكاري، والثانية تأثرت فيها بإحدى قصص إحسان عبد القدوس، الروائي المصري المعـروف. كان عنوان القصة "أشـرف خائنة"، عـن امرأة متزوجة تقع في حب شخص آخر. لكنها تتفق مع حبيبها على أن يظل ذلك الحب عفيفًا طاهرًا. وافق الأسـتاذ المشرف على النشر، لكنه انتقد فكـرة قصتي والتي لم تكن فكرتي أصلًا، بل هي من إبداع الكاتب المصـري، ورأى أن الخيانـة تمت فعلًا، ولا داعـي للتظاهر بالعفة

والشرف.

هؤلاء كانوا أساتذتي في المرحلة النهائية من التعليم الثانوي، وكنا سعداء بهم وبالتعلم على أيديهم. أتذكر اليوم ذلك الزمن الذهبي الجميل، حين كانت المؤسسة التعليمية تحظى بثقة آباء وأولياء أمور التلاميذ. وقتها لم يكن يعرف المتعلمون ولا أهلهم معنى الساعات الإضافية، ولا الدراسة في المؤسسات الخصوصية.

عيب تلك الفترة التاريخية من عمر دراستنا، أننا عانينا فيها من العنف الجسدي، ولم نتخلص منه إلا بعد التحاقنا بسلك التعليم الثانوي. تلك الحقبة كانت موسومة عموما بالعنف، لا تخلو الأسر ولا الشارع منه. والمدرسة كانت بدورها امتدادًا لما يقع في الشارع والأسرة. وشعار "العصا لمن عصا" كان الشعار الذي يرفعه الآباء قبل الأساتذة. يقصد الأب المؤسسة التعليمية التي يدرس فيها ابنهو يقول للمدرس كأنه يعقد معه صفقة لارتكاب جريمة مشروعة:

_ أنت ذبح وأنا نسلخ.

وبموجب هذا الاتفاق، والضوء الأخضر الذي كان يمنحه الأب للأستاذ، كان بعض الأساتذة سامحهم الله، خاصة في سلك التعليم الابتدائي، يتجاوزون ما هو مقبول في تأديبنا، ويمارسون علينا عنفًا مبالغًا فيه، كلما اجترحنا في نظرهم ما يستوجب ذلك.

لـم يكن أغلبهـم، يفهم أن للطفـل حقًّا في الخطـأ وفي اللعب وإهمال واجب كلف به الأسـتاذ بين الفينة والأخرى. كانت قناعة المدرسـين متمركزة حول فكرة أساسـية مفادها أن الطفل جاء إلى المدرسـة كي يتعلم، وأن أهم مدخل أو وسيلة لاكتساب المعارف هـو الصرامة والعقاب البدني، خاصة بالنسـبة للكسـالى الأغبياء. وهؤلاء يقصد بهم من لا يحفظ عن ظهر قلب ملخصات الدروس، جدول الضرب، محفوظات، والقرآن الكريم.

في إطار هذه المقاربة التسـلطية التي كنا نعاني منها، أذكر يومًا مشؤومًا كنا نعيشه كل أسبوع. هذا اليوم هو يوم الخميس. كنا نسميه الخميس الأسـود، لأنه اليوم الذي تقدم فيه حصة الضبط الشَّـكل. يملأ المعلم السـبورة عـن آخرها بقطعة نثرية، ثـم يطلب منا نقلها على الدفاتر وضبطها بالشكل، وبعد الانتهاء تأتي لحظة التصحيح.

لحظة التصحيح، أو بالأحرى لحظة التعذيب، كان يتعرض لها كل تلميذ مثلي لا يفهم البنية النحوية الخفية للجمل العربية. كانت أمنيتـي على الدوام ألا يطلب مني الأسـتاذ القيام إلى السـبورة. لم يكن دماغي يسـتوعب قول المعلم مثـلا، "والجملة في محل رفع خبـر لمبتدأ محـذوف". الحـذف والإضمار، وتقديـم الخبر على المبتدأ، وكل ما ابتدعه العرب في لحظة فراغهم من ظواهر لغوية، لم يكن دماغي البسيط يسبر غورها.

لـم يكن أسـاتذتنا وقتها قد اطلعوا على النظريات السيكولوجية

التي تفسر كيف يكتسب الطفل المعارف. لم يكن بإمكانهم أن يدركوا أن ذكاء الطفل في هذه المرحلة هو ذكاء عملي، وأن استيعاب المجردات وفهم المضمرات يحتاج لمراحل عمرية أرقى، تنضج فيها البنيات الفكرية للتلميذ، وعندها يصبح ذكاؤه ذكاءً صوريًا قادرًا على إدراك المجردات.

يوم الخميس هذا سيظل راسخًا في الذهن، وأتذكره كلما زرت أستاذًا أو أستاذة، ووجدتهما يقدمان التطبيقات الكتابية للمتعلمين. أغلب الأساتذة وعلى الرغم من التنقيح الذي عرفه المنهاج المغربي، والذي تخلت فيه الوزارة عن التركيز على الإعراب، ما زال العديد من الأساتذة يصرون على التشبث به، ويعتبرونه أساس تمكن المتعلم من ناصية اللغة العربية. لا يعلم هؤلاء أنهم وبشكل لا شعوري، يعيدون إسقاط ما مورس عليهم، حين كانوا تلاميذ في نفس المستوى. وحين يثير المفتش الموضوع مع هؤلاء الأساتذة، ويحثهم على التخلي عن التركيز بكثرة على الظواهر اللغوية، وبناء وضعيات تواصلية مفيدة، يعدونه بأن يفعلوا، لكنهم سرعان ما تعود حليمة لعادتها القديمة.

ستنتهي مرحلة التعليم الثانوي، وسيحين موعد اجتياز الامتحان الإشهادي لنيل شهادة البكالوريا. كانت قيمة هذه الشهادة أكبر من أن تجري أطوارها في قرية تاهلة، عكس ما هو حاصل اليوم، لذلك كان عليَّ وعلى باقي المرشحين شد الرحال إلى مدينة تازة لاجتيازه.

الحصول على شهادة البكالوريا

كنت في مدينة الدار البيضاء، عند أخت لي تقيم هناك، حين تم الإعلان عن نتائج امتحان البكالوريا. كانت هذه النتائج وقتها تصدر على صفحات أهم الجرائد الوطنية. اتصل بي ابن عمي وأخبرني بنجاحنا. فرحة الحصول على شهادة البكالوريا في الثمانينيات تضاهي فرحة الحصول على وظيفة اليوم. كانت الفرص متاحة، وإذا أغلقت في وجهك كل الوظائف فوظيفة الجماهير الشعبية والتي هي التعليم تظل في المتناول.

لم يكن التلميذ الحاصل على شهادة البكالوريا في هذا الزمن متلهفًا على الوظيفة. معدل البطالة لم يكن قد ارتفع زئبقه ليبلغ المستوى الحالي، ولهذا السبب كان كثيرون يفضلون مواصلة دراستهم الجامعية، للحصول على وظائف أرقى.

الجامعة حينها كانت مؤسسة جاذبة، مؤسسة تمكن الخريجين من الحصول على وظيفة محترمة. عقود قليلة بعد ذلك وسيأفل نجم الجامعات المغربية. لم تعد تمكن الطلاب من الحصول على عمل. القطيعة أصبحت شبه مطلقة ما بين الجامعات وسوق العمل، مما جعل الكل ينصرف عنها، لتصبح الملجأ الأخير

لمـن لا ملجـأ لـه. يقضي الطـلاب ذكـورًا وإناثًا سـنين عديدة في الجامعة، يحصلون على شـهادة الإجازة، والتي أصبح يطلق عليها شـهادة الجنازة، أو شهادة الماستر، لكن لا أحد يضمن له الوظيفة المنشودة، اللهم إلا وظيفة التدريس إذا كان الحظ بجانبهم.

سـتفقد شـهادة البكالوريا أيضا بريقها وقيمتهـا الاجتماعية في نهايـة الثمانينيـات وبدايـة التسـعينيات، بسـبب كثـرة الناجحيـن، وستتخلى المنابر الورقية عن عادة نشر النتائج على صفحاتها، لأن نشرها أصبح غير ممكن.

عدت إلى مدينتي الصغيرة سعيدًا بحصولي على الشهادة العتيدة. اسـتقبلتني أمي الشـخص الأول المعني بنجاحي بالعناق والبكاء، والجيـران قاموا بتهنئتـي أيضًا، والتقيـت بعدهـا بأصدقائي الذين فـازوا في معركة البكالوريا، والذين لم يوفقوا من أصدقائنا حاولنا أن نرفـع مـن معنوياتهم ونؤكد لهم أننا السـابقون وهم اللاحقون.

مـن بين الراسـبين تلميذة كنت معجبًا جدًا بهـا، وآلمني أنها لم تنجـح. التقيت بها، هنأتني، أكدت لهـا أن فرحتي لم تكتمل لعدم نجاحها هي أيضًا. ستنال هذه الفتاة البكالوريا فيما بعد، وستلتحق بدورهـا بمجـال التعليم كأسـتاذة في سـلك الإعـدادي. تزوجت وأنجبت بنتين رائعتين وهي الآن جدة ولم تتقاعد بعد.

أثنـاء لقاءاتـي المتكررة مع أصدقائي الناجحيـن، كان الحديث يتمحـور حول خطوة مـا بعد البكالوريا. الـكل كان يريد الالتحاق

بالجامعـة، حتـى قبل أن يفكروا في الشـعبة التي سينتسـبون إليها. كانت كلية الاسـتقطاب هي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة، ولا يسـمح إلا للطلاب الذين يريدون دراسة الفلسفة بالتسجيل في هذه الشعبة بكلية ظهر المهراس بمدينة فاس.

كنا جميعا أدبيين، أي حصلنا على شـهادة البكالوريا تخصص آداب، مما جعلنا أمام خيارين لا ثالث لهما: إما اختيار شعبة أدبية، أو الالتحـاق بشـعبة القانـون. صراحة لم أسـتبعد الالتحـاق بهذه الشـعبة، وإن كان عشـقي لشـعبة الأدب العربي أو الفلسفة أقوى. الوظائـف التـي كانت تضمنها شـعبة القانون جذابـة ومغرية، يأتي القضاء على رأسـها. حين أخبرت أصدقائي بهذا الاحتمال أنكروا علـيَّ ذلك، بدعـوى أن هذه الشـعبة صعبة، وعلـي مواجهة أطنان من الكتب القانونية المشـحونة بالفصول القانونية الصعبة، وأكون مجبرًا على فهمها وحفظها.

انتهـى بنـا القـرار أنـا وصديقيـن مقربيـن إلـى اختيـار شـعبة الدراسـات الإسلامية، لأنها وحسب تقديرهما كانت شعبة جديدة وآفاقهـا واعـدة. والحقيقـة أنها لم تكـن جديدة ولا هـم يحزنون، بل كانت صيغة أخرى معدلة نسـبيًا عن شـعبة الشريعة الإسلامية. هـذا التخصص ابتكرته وزارة التعليم العالي، في مختلف الكليات المغربيـة، للحـد مـن المـد التقدمـي الـذي كان حاضرًا بقـوة في الجامعات، خاصة تلك التي تتواجد فيها شعبة الفلسفة.

الاتفـاق الـذي تم بيننـا سـأرغم على عـدم الالتزام بـه، وعلى الرغم من أنني رافقتهما إلى مدينة وجدة، كما سأشرح لاحقًا، فقد أرغمتنـي ظروف عائلية قاهرة على التراجع عن مواصلة مشـواري الدراسي لألتحق بسلك التعليم الابتدائي.

شاءت الظروف أن آتي إلى هذه الدنيا من ظهر رجل ورحم أنثى كان التوافق بينهما منعدمًا. كان أبي رحمه الله رجلًا مزواجًا، ما إن يصادف فتاة أو سـيدة ترغب في الـزواج منه حتى يلحقها بحريمه. تسـتمر علاقته الزوجية الجديدة ردحًا مـن الزمن، قد يطول لبضع سـنين أو يقصر لزمن قياسي كشـهر مثلًا، كما حدث مع إحداهن، ليأتي بأخرى. بقي على هذه الحال إلى أن خانته قدراته الجسـدية، ولم يعد يستطيع الزواج.

كانت مدونة الأسرة في القرن الماضي لا تطرح أي مشكلة أمام الرجل المزواج. يطلق زوجته أو يتزوج عليها دون أن يخبرها، ولا أحد يحاسـبه. نعـم كان ذلك الحق التشـريعي ظلمًـا بينًا، وها هي الأيـام تـدور علينا نحن الرجـال كما دارت على السـلطان "دارا"، ليصبح التعدد مهمة مسـتحيلة. هل نشـكر الغـرب أو نذمه على ما فعلـه بنـا؟ هي مسـألة اختلفت حولهـا الآراء وما تـزال، ولا يعنينا خلاف المختلفين في متن هذه المذكرات.

عندمـا نفضت والدتي يدهـا من زوجها، وقد أنجبت منه سـتة أبنـاء، أصبحـت تراهـن على ابنهـا البكر، الـذي هو أنـا طبعًا، كي

يخلصهـا من رجل يأتيها بضـرة جديدة على الأقل مرة في السـنة. صبرت على سلوكه، وعلى كل النساء اللائي استقدمهن إلى بيتها، لم يكن أمامها خيار آخر.

بعد حصولي على شـهادة البكالوريا تنفست والدتي الصعداء، وأيقنـت أن ليل الظلم قد آذن بالـزوال، وأن فجر الفرج قد اقتربت أنواره. لم تحاول والدتي إرغامي على التخلي عن حلم الدراسة. ما قامت به هو تذكيري بما كنت أعرف مسبقًا، وهو أن حال والدي لن يتغير، وأنني إذا لم أنقدها فسيظل وضعها على ما هو عليه إلى الأبد.

جـدي والد أمي، والذي عانى بدوره من مشـكلة ابنته، اسـتغل فرصة حصولي على البكالوريا، ليتخلص من عبء هذه المشكلة، وأصـر علـى أن أبحـث عـن وظيفـة لإعالة أمـي وإخوتـي، وفك الارتبـاط بوالدي. الأنانيـة كانت وما تزال المتحكم الأسـاس في سـلوك البشـر. هذا الرجل، أقصد جدي، هو من اتخذ قرار تزويج ابنتـه من أبـي، لم أكـن حاضرًا ولم يستشـرني في القـرار الخاطئ الذي اتخذه، والذي سـيتخذه مع ابنتـه الثانية أيضًا، لذلك لم أفهم سبب تحميلي تبعات قراره الخاطئ.

بعـث لي رسـالة مع جدتـي، التي جـاءت لزيارتنا ذات مسـاء. قالت باللغة الأمازيغية:

ـ ينَّـاش جَدَّش سـير أتخدمـت خيَمّاش ديثْمـاش. (يقول لك جدك: عليك أن تعمل لتعيل أمك وإخوتك).

وافقت مرغمًا، ليس استجابة لأمر جدي، بل لرغبة أمي الصامتة. صمتها الكئيب أقنعني بالتخلي عن الدراسة الجامعية أكثر مما أقنعتني أنانية والدها. أول خطوة قمت بها لولوج سوق الشغل هي تقديم طلب للمشاركة في مباراة الالتحاق بالأكاديمية العسكرية للضباط بمدينة مكناس. بعثت الطلب عبر البريد. الخطوة الثانية كانت الذهاب إلى مدينة تازة، حيث يتواجد مركز تكوين المعلمين. هناك وضعت لدى الإدارة ملفًا يتكون من صورة مصادق عليها لشهادة البكالوريا، وصورة لبطاقة التعريف الوطنية مع وثائق أخرى. هذه الوثائق وتضاف إليها شهادة البكالوريا الأصلية كانت الشرط الأساس للالتحاق بمركز تكوين المعلمين، إذا ما تم قبول المرشح في المركز. ولعل السبب الذي جعل الوزارة تفرض على الطالب المعلم سحب شهادة البكالوريا من الجامعة ووضعها تحت تصرف إدارة مركز المعلمين هو منعه من متابعة دراسته، حتى لا يطالب وزارة التربية الوطنية عند حصوله على شهادة الإجازة بالترقية، التي كان يخولها له المشرع.

هاتان الخطوتان اللتان قمت بهما للحصول على وظيفة لم تمنعاني من السفر إلى مدينة وجدة برفقة صديقيَّ للتسجيل في جامعة محمد الأول. لم يكن من المنطقي المراهنة على وظيفتين، أقصد وظيفة ضابط ووظيفة معلم، قد لا أحصل على أي واحدة منهما، وأضيع سنة دراسية، وربما مستقبل دراستي الجامعية.

سافرنا ذات صباح من صباحات شهر شتنبر (سبتمبر) إلى مدينة وجدة. وصلنا إليها مبكرًا، حوالي الساعة العاشرة، ركبنا أول سيارة أجرة حمراء توقفت لنا، وطلبنا من السائق أن يأخذنا إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية. كان جمهور غفير من الطلبة يملؤون رحاب الجامعة. بحثنا عن المكتب المخصص لتسجيل طلبة الدراسات الإسلامية. وجدنا أمامنا طابورًا طويلًا لطلبة جاءوا لنفس الغرض. وقفنا ننتظر دورنا. فجأة قصدنا خمسة أو ستة طلاب ملتحين يرتدون عباءات بيضاء وسوداء. كان يتزعمهم طالب متوسط القامة بدين الجسم، تحف لحية كثة بعارضيه. ألقى تحية الإسلام، ثم أطلق العنان للسانه الذي يبدو أنه كان متعودا على الخطب الرنانة. حاول بكل ما أوتي من بلاغة وحجج دامغة أن يفهمنا أن الطلاب يواجهون تغول الإدارة، وكل قوى القمع التي تحاول تدجين الطلاب، والإتيان على المكاسب التي حققها اتحاد طلبة المغرب المعروف اختصارًا بـ"أ.و.ط.م". واصل ذلك الطالب الحديث بصوته الجهوري قائلًا:

"ونحن كفصيل من الفصائل الممثلة والمدافعة عن حقوق الطلاب، جئنا إليكم كطلبة جدد، لنثير انتباهكم منذ اليوم إلى المشاكل التي نعاني منها جميعًا كطلبة، والتي ستصبح وأنتم تلتحقون بالكلية، مشاكلكم أيضًا، وعليه فعليكم أن تنضموا لصفوفنا لنناضل جميعًا، حتى نحقق مطالبنا المشروعة، سواء

المادية أوالمعنوية، وبذلك نصون كرامتنا كطلاب".

لـم يكـن مثل هـذا الخطاب غريبًا عني. لقد شـاء لـي القدر في مفارقـة غريبة، أن ألتحق بالحرم الجامـي بكلية محمد بن عبد الله بظهـر المهـراس بفاس وأنا تلميذ في السـنة التاسـعة، لـم أتجاوز نصف عقدي الثاني، ليحرمني من الالتحاق بها حين حصلت على شهادة البكالوريا.

الظروف التي سـاقتني إلى الجامعة مبكرًا كانت اسـتثنائية نوعًا مـا. كان لـدي صديـق مغرم مثلـي بالقراءة. هـذا الفتـى الذي كان يكبرني سـنًا كان ذكيا ومتميزا في مـادة الرياضيات، وكان يقدم لي العون كلما كلفنا أستاذ الرياضيات بفروض خارج القسم.

حبنـا للمطالعة هو ما جمع بيننا وجعلنـا أصدقاء مقربين. كنت أحـب قـراءة كل الكتـب، خاصة الروايات، سـواء كانـت روايات رومانسـية بوليسـية أو تاريخيـة. صديقـي كان يعشـق الروايـات والقصص البوليسـية، وكان أحب كاتب مختص في هذا اللون إلى قلبـه هو الكاتـب الإنجليزي العالمـي "آرثر كونان دويـل"، الذي ابتكر شخصية المحقق الذكي الشهير "شارلوك هولمز".

كنـا نقـرأ مغامـرات هـذا المحقـق بشـغف لا نظير لـه، واتفقنا أن نتبنـى طريقـة المحقق فـي التحقيق، كي نرى من منا سـيتوصل لحل لغز الجريمة، بطريقة وأسـلوب تحقيق شارلوك هولمز. كان صديقـي يتوصل على الدوام ولا يخطئ إلا لمامًا في الوصول إلى

هوية القاتل، وكنت بعكسه لا أكتشف القاتل إلا فيما ندر.

كان لهذا الصديق أخت وأخ يدرسان في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس. الأخت _ وهي الكبرى_ كانت مخطوبة وتدرس الأدب الفرنسي، وأخوها يدرس الأدب الإنجليزي، وكنا نزورهم بين الفينة والأخرى، ويستضيفنا خطيب أخت صديقي، الذي كان بدوره طالبًا في سنته النهائية تخصص قانون خاص.

أثار اهتمامي في الأيام الأولى لالتحاقي بالكلية مناخها العام. ما إن تدخل الكلية حتى تشعر كأنك التحقت بعالم أو بكوكب آخر. هامش الحرية في رحابها كان واسعًا بحق. الكل يتصرف ويعبر عن آرائه كما يحلو له ويشاء. أسلوب الدراسة فيها مختلف حقًا عن أسلوب الدراسة في الإعدادية التي كنت أدرس فيها. لا أحد يلزم الطلبة بالحضور، ولا أحد يطالبك بورقة الدخول إن تأخرت. طبعًا هذه أمور عادية، لكن بالنسبة لتلميذ بحداثة سني، وفي هذا التاريخ بالتحديد نهاية السبعينيات، لم تكن كذلك.

فتنت أيضا بتلك الحلقات التي كان الطلاب ذكورًا وإناثًا يشكلونها. يجتمعون حول أحد الطلاب، وغالبًا ما يكون من أحد الفصائل التقدمية. ينطلق هذا الأخير في خطبة عصماء بلغة عربية فصيحة أنيقة، يحلل خلالها الوضع السياسي والاقتصادي الدولي وانعكاساته على الوضع الوطني. يصب جام غضبه على الإمبريالية العالمية المتوحشة، التي أحكمت قبضتها على

الحكومات العربية، ففرضت عليها إملاءات سياسية غير شعبية، لا تخدم البلاد ولا العباد. ما الحل؟ الحل بالنسبة للمتحدث هو تبني الخيار الاشتراكي الثوري على غرار نهج الاتحاد السوفيتي لا بدليل حسب رأي الطالب الخطيب، عن النضال بكل الإمكانات المتوفرة، لمواجهة الإمبريالية المتغطرسة مفقرة الشعوب. ولتحقيق النصر لا بد لعمال العالم _ كما قال لينين_ أن يتحدوا، لرفع ظلم واستبداد الرأسمالية، وأذنابها المنتشرة في شتى أنحاء المعمور.

هذا ما فهمته لاحقًا، أما حينها فقد كنت أتابع ما يُقال كالأطرش في الزفة على حد قول المصريين. نعم، ما كان يُقال كان يتجاوز قدراتي الإدراكية. معارفي وملكاتي العقلية كانت ما تزال عاجزة عن فهم دلالة البنية التحتية وأختها الفوقية. مفهوم الاستلاب والاغتراب، بيع القوة العضلية، القيمة المضافة، وعلاقة الفكر بالواقع، ومن له الأسبقية منهما؟ هل الأول أم الثاني؟ ومفاهيم أخرى صعبة الإدراك. سأسمع لأول مرة عن الرفيق كارل ماركس، والرفيق أنجلز، لينين، غرامشي، وتشي جيفارا، وغيرهم من الرفاق الذين كانت أفكارهم بل وأرواحهم تسكن فضاء الحرم الجامعي.

غالبًا ما كنت أتجه أنا وصديقي إلى الكلية بعد الظهيرة، نقتل الوقت بالتجول في رحابها، أو نلج مدرجًا لمتابعة محاضرة ما. نجلس بين الطلبة، أستمع إلى أستاذ ما وهو يلقي محاضرته، لا أفقه شيئًا مما يقول. لكنني مع ذلك ينتابني شعور بالفخر لأنني

أجلس مع طلاب الجامعة. كأنني اخترقت الزمن وجئت من زمن الدراسة الإعدادية إلى زمن الدراسة الجامعية.

في المساء قبل الغروب نعود إلى متابعة الحلقات. صراحة كان أولئك الطلاب يثيرون إعجابي بفصاحتهم وقدرتهم على مواصلة الكلام لساعات دون كلل أو ملل، ودون خوف من أن تعتقلهم أجهزة الأمن. كان كلامهم جريئًا، ولو قيل في أماكن أخرى خارج أسوار الكلية لاعتُقِلوا على الفور. لكن الحرم الجامعي كان ملاذًا آمنًا يمكن الطلاب من التعبير عن آرائهم بكل جرأة وحرية. السلطات كانت تغض الطرف، ما دام ما يُقال يظل بين أسوار الجامعة.

يحل الظلام دون أن نشعر، ويكون علينا أن نغادر لنتدبر أمر عشائنا. يهمس لي صديقي:

_ علينا الذهاب.

يفتح المطعم الجامعي، أو ما يطلق عليه الطلبة اسم "الريسطو" أبوابه ابتداءً من الساعة السادسة. ثمن الوجبات الثلاث كان درهمًا وأربعين فرنكًا. كنا نتدبره بيسر إلا فيما ندر. نقتني تذكرتين من المكتب الخاص ببيعها، وحين نتأخر ويكون المكتب قد أغلق بابه، نتجول بين الطلبة ونحن نحرك في كفينا النقود. يقصدنا طالب أو طالبة قررت عدم تناول وجبتها، تبيعنا تذكرتها، ونتجه إلى المطعم.

وجبات مطعم الجامعة كانت تبدو لي وقتها لذيذة وممتعة، في بعض الأمسيات كان الطلاب الذين لا يرضيهم ما يقدم لهم يلجؤون إلى الاحتجاج، يقرعون الأطباق بالملاعق، يتدخل المدير المسؤول أو نائبه، يحاول تهدئة الوضع، يعدهم بألا يتكرر ما سجلوه من تقصير. وعد المسؤول لم يكن سوى وعد عرقوب كما يقول المثل. الطلاب يعرفون ذلك، تهدأ الأمور أيامًا قليلة، ثم تثور ثائرتهم، ويعودون للاحتجاج.

كنت بدوري أحتج مع الطلبة، أقرع بدوري الصحن، تبتسم أخت صديقي وخطيبها وأخواها وهم يرون أصغر مناضل انتمى سهوًا إلى جامعة ظهر المهراس يطالب بحقوق ليست من حقه. حين ننتهي من تناول وجبة العشاء كنا نتسلل أنا ورفيقي تحت جنح الظلام إلى أماكن معينة في الكلية. هذه الأماكن كنا نسميها "واحة العشاق".

تحت الأشجار الباسقة، وأسفل بنايات الكلية، ينتشر الطلاب مع حبيباتهم. يستغلون العتمة ليعبروا جسديًا عما يشعرون به عاطفيًا تجاه بعضهم بعضًا. هذه المشاهد الغرامية أو بالأحرى الإيروتيكية التي لم نكن نشاهدها بوضوح كانت تستفزني بحق. الاستيهامات التي كانت تخلفها في الفكر والوجدان كانت جد مؤثرة بحق، وكنا نحتاط لنواصل الاستمتاع بتلك المشاهد الغارقة في العتمة والتي لم يكن يصلنا منها سوى أنين اللذة والمتعة ألا ينتبه لنا العشاق.

المحـرم طبعا له سـلطة على أغلب البشـر، يثير فينـا الرغبة في اجتراحـه بقصـد الاسـتمتاع والاكتشـاف، فـي مخبئنـا كنـا بالكاد نتمكـن من كتم الضحك كلما انتهى إلينا همس المحبين وآهاتهم. نقضي وقتا غير قصير في متابعة ما يجري، ثم نقرر المغادرة.

تظل تلك الصور عالقة بالذهن، وأضيف إليها من خيالي اليافع ما يزيدني غلمة ومتعة، وأنا أتمنى لو تمر السنون التي تفصلني عن ولوج الجامعة كالبرق لألتحق بالجامعة. ليس للدراسـة فحسـب، بل لتكون لي حبيبة أنا أيضًا ترافقني إلى حيث كان الطلاب العشاق يأخذون حبيباتهم.

تلـك العوالم التي ظلـت عالقة في الذاكرة والوجدان لم يخطر لي وقتها أنني سـأوظفها يومًا كما عشـتها في متن روايتي السادسة "كل الرجـال". رواية تتناول الجامعة وأزمة التعليم كموضوع لها. شـاركت بهـا في مسـابقة لنيـل جائزة الشـباب التي تنظمها شـبكة القراءة في المغرب، وحصلت على المرتبة الثانية.

ما كان يعاش في الجامعة باسـم التحرر سـيؤثر بعد عقود سـلبًا علـى نظـرة المجتمـع للجامعـة، التي خبـا توهجها كما أسـلفت. وستنسـحب هـذه لنظـرة السـلبية أيضًـا علـى طالبـات الجامعـة بالخصـوص. أصبحت الطالبة الجامعية لـدى الكثيرين مجرد فتاة سـهلة وماجنـة. هذا الحكم طبعًـا ليس صحيحًـا ومجحفًا، ولكن شئنا أم أبينا تأسس على لحظة تاريخية من عمر الكليات، حين كان

التحرر من أغلال المجتمع البائدة حسب تقدير الطلاب أمرًا ليس مشروعًا فحسب بل ضروريًا، لتحقيق التحرر المجتمعي الشامل.

سنة 2001 سأعود متأخرًا إلى الجامعة للحصول على شهادة الإجازة، شعبة الفلسفة، تخصص علم النفس. كانت مدة الدراسة وقتها أربع سنوات، لم أحضر خلالها أي محاضرة، ولم أسمع أي جملة من أي أستاذ، لسبب بسيط، وهو أن الأمر لم يكن يستحق ذلك. كان الأساتذة وما يزالون يقدمون مطابع للطلاب ويمتحنونهم فيها. هذا النهج قتل الرغبة في البحث والقراءة لدى أغلب الطلاب، مما جعل جلهم يحصلون على شهادة الإجازة دون أن يقرأ أي منهم ولو كتابًا واحدًا في مجال تخصصه. وقد لاحظت ضعف تكوين الطلاب حين كانوا يتوفقون في الاختبار الكتابي لمباراة التعليم ويأتون للمقابلة الشفهية. هاته المقابلة كنا نشرف عليها نحن كمفتشين، نطرح عليهم أسئلة بسيطة في تخصصهم، ويعجزون عن تقديم إجابة مقنعة لها. أما اللغة الفرنسية التي من المفروض أن يدرسوا بها، فلا يتقنها إلا قلة قليلة بحق. وكنت أتساءل حقًّا مثلي مثل كثيرين غيري: إلى أين تسير المؤسسات التعليمية العمومية؟

في السنة الثانية عشت تجربة مع أستاذة التعليم العالي، أكدت لي أن الموارد البشرية في مختلف أسلاك التعليم تظل معضلة منظومتنا التعليمية بشكل عام. فبعد أن اجتزنا الامتحان الكتابي،

وجاء وقت الامتحان الشفهي، عانينا الأمرَّين مع أستاذ مادة اللغة الإنجليزية. ليومين متتالين وأنا أسافر مع أول خيط نور ليوم جديد إلى مدينة تاهلة، ألتحق بالكلية على الساعة التاسعة صباحًا، وأقضي سحابة يومي مع العديد من الطلاب، ننتظر الأستاذ الجليل أن يظهر ليختبرنا في مادته، لكن دون جدوى. لم يتجشم الأستاذ عناء إخبارنا عن طريق الإدارة بتأخره، و متى سيكون مستعدًا لاختبارنا، نبقى ننتظر، كأننا مجرد أقنان في مزرعته، وقبل الغروب علينا الرحيل عن الجامعة، والعودة إلى بيوتنا، وفي اليوم الموالي علينا العودة مرة أخرى، لأن الأستاذ قد يحضر، وإذا غبنا فلن نجده مرة ثانية بسهولة.

بعد أن عيل صبرنا قررت مع زمرة من الطلاب أن نقصد إدارة الشعبة لنسأل عن الأستاذ، لمعرفة متى سيشرفنا سيادته. استقبلتنا موظفة وسألتنا: ما الأمر؟ أخبرناها بمشكلتنا، فاتصلت بالأستاذ. ثارت ثائرة الأستاذ، ولم يكن الوحيد، زملاؤه الأساتذة استغربوا واستنكروا، أن يتجرأ الطلاب على تذكير الأستاذ الذي تجاهلهم بأنه مطالب بإجراء الاختبار الشفهي لهم. جاء الأستاذ غاضبًا، وحين حان دوري ودخلت إليه استقبلني أنا وطالبة أخرى بوجه مكفهر. تجرأت وفاتحته في الموضوع، فأجاب بأن مثل هذا السلوك لم يشهد مثيلًا له منذ أن التحق بالجامعة، وأضاف:

_ "لم يسبق للطلبة أن احتجوا على الأساتذة بسبب تأخر في

إجراء الامتحان الشفهي".

أجبت:

_ "يبدو أستاذي الكريم أنك فهمت المسألة خطأ. نحن لم نقصد الإدارة لإرغامك على الحضور بالقوة، نحن فقط أردنا أن نعرف متى ستكون مستعدًا لإجراء هذا الامتحان، لأن بعضنا وأنا منهم لا نقطن في مدينة فاس، ومنذ يومين ونحن نأتي إلى الكلية حسب ما هو منصوص عليه في استدعاء إجراء الامتحان الشفهي، فنقضي سحابة يومنا في الانتظار، ثم نعود بخفي حنين، كما يُقال".

هدأ الأستاذ قليلًا، ولكنه رفض أن يقتنع أن ما قمنا به أمر مشروع. تساءلت: هل نحن أمام أساتذة أم أمام ضباط جيش؟ أليس من حق الجندي البسيط أن يسألهم عن أمر يخصه؟ حين يصبح المثقف مستبدًا دون وجه حق، وهو الذي يمثل ضمير الأمة، فعلى هذه الأمة السلام.

أعود إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الأول بوجدة، وإلى اللحظة التي كنت فيها مع القارئ العزيز واقفًا مع صديقيَّ لنسجل أنفسنا في شعبة الدراسات الإسلامية. قبل أن أستطرد في ذكريات وظروف تعرفي قبل الأوان على الجامعة، فإن التحاقي المبكر بها هو ما جعلني لا أفاجأ بمداخلة ذلك الطالب الملتحي، كما أن حديثه الرنان لم يثر اهتمامي أيضًا.

لجأنا إلى الصمت وتركناه يتكلم، إلى أن اكتفى ثم غادر ورفاقه. حين جاء دورنا قدمنا وثائقنا بما فيها شهادة البكالوريا الأصلية للموظف المكلف. تأكد من أن كل الوثائق المطلوبة متوفرة، وأعطى لكل واحد منا وصل التسلم، ثم غادرنا الجامعة.

مباراة الأكاديمية العسكرية.

بعد أيام قليلة من عودتي إلى قريتي، توصلت باستدعاء لاجتياز مباراة الأكاديمية العسكرية بمدينة مكناس. وكما لم أفكر يومًا في أن أكون معلمًا، كذلك لم تهفُ نفسي قط إلى سلك الجندية، على الرغم من أن أبي كان عسكريًا. ربما لهذا السبب بالضبط لم أرغب في أن أمتهن مهنة والدي. كنت ما أزال أحترم مهنة العسكري، فهي مهنة شريفة، وأهلها صمام أمان لحماية البلاد من كل اعتداء، لكنني في نفس الوقت، وقد يبدو تناقض في قولي، لم أكن أرى نفسي أحد عناصر الجيش، ولو برتبة ضابط. كنت أرى في الجندي البسيط، مجرد شخص وهب نفسه ووقته لمهنة الجندية. شخص لا يجد الوقت حتى لنفسه، فكيف يجده لأسرته؟ الجندي دائم الغياب عن عائلته، مما يجعل ابنه ينشأ وكأنه المسيح لا أب له.

هذه كانت تجربتي مع الوالد. منذ أن اندلعت أزمة الصحراء ونحن لا نراه إلا لمامًا. وعلى الرغم من موقفي السلبي من مهنة الجندية، فقد اضطررت وللظروف العائلية التي ذكرتها سابقًا إلى أن أجرب حظي وأجتاز هاته المباراة.

وصلت إلى مدينة مكناس برفقة بعض الأصدقاء ممن وصلهم نفس الاستدعاء، مساء يوم أحد من شهر شتنبر. كل واحد منا حاول أن يتدبر المكان الذي يقضي فيه ليلته. المبيت في فندق لم يكن واردًا، فلم تكن إمكاناتنا المادية تسمح بترف كهذا، ولم نكن نتوفر سوى على نقود قليلة لتناول ما نسد به الرمق، وثمن العودة بعد الانتهاء من المباراة إلى بلدتنا.

كان لدي قريب في المدينة الإسماعلية، قضيت الليلة في بيته، استقبلني بحفاوة هو وزوجته، وكانا يمازحانني بإطلاق لقب "الفسيان" أي lieutenant عليَّ، كأنني وفقت في المباراة وأصبحت بالفعل ضابطًا. في الصباح الباكر اتجهت على متن سيارة أجرة إلى ثانوية مولاي إسماعيل، وهي المؤسسة التي تم تخصيصها لإجراء أطوار المباراة.

أمام المؤسسة التعليمية الشهيرة توقفت السيارة. دفعت ثمن الخدمة وقصدتها. كان هناك جمهور عرمرم أمام الباب الحديدي الكبير المؤلف من ضلفتين بلون الغسق. مرشحون لا حصر لهم جاؤوا برفقة آبائهم وذويهم من مختلف المدن المغربية. لم يكن الطاقم الإداري المدني هو من يقف عند مدخل البناية ليتسلم الاستدعاءات من المترشحين، بل ثلاثة جنود برتبة ضباط صف.

أول ما لفت انتباهي وجعل قلبي ينقبض هو سوء معاملة الجنود الثلاثة للمرشحين. لم يكن هؤلاء العساكر يؤدون مهمتهم بلطف،

أو على الأقل بشكل عادي. أبدوا صرامة لافتة، وطفقت أصواتهم الجهورية ترتفع في وجه حشد المرشحين الذين كانوا يتدافعون، وهم يريدون الوصول إلى المكلفين باستلام الاستدعاءات. كان هناك ما يشبه جدارًا أصمَّ يفصل ما بين معسكرين: معسكر المدنيين ومعسكر الجنود. الجندي البسيط كما هو معروف يطبق الأوامر، ليس مطلوبًا منه أن يعمل عقله، عليه التنفيذ فحسب. سأتذكر هذا الموقف، حين قرأت يومًا مقولة لنيتشة تقول: "الجندي لا يحتاج إلى الدماغ، البصلة السيسائية تكفيه".

بعد أزيد من ساعتين من الانتظار تمكنت من تقديم الاستدعاء لأحد الجنود. تأمله بسرعة ثم أشار إليَّ بالدخول. تجاوزت عتبة الباب، امتدت أمامي ساحة رحبة بحق، كان يقف فيها المرشحون الذين دخلوا قبلي.

بعد أن دخل جميع المترشحين أغلق الباب. انتابني شعور رهيب جعلني أحس وكأنني ورفاقي معتقلون ارتكبوا جريمة. أمَرَنَا جنود يترأسهم رئيس ضابط صف adjudant_ chef وكان عددهم ستة بأن ننتظم في طوابير متساوية. امتثلنا لما طلب منا. غادر الجنود وتركونا واقفين في الساحة ولا أحد يأبه بنا. كانت الشمس تتربع على عرش سماء خالية من السحب. أشعتها التي تشبه خوازيق من نار مسلطة علينا، تلهب رؤوسنا. أظن أنهم تعمدوا أن يتركونا حيث نحن. سأفهم فيما بعد أنني ومن معي قد بدأنا أولى

مراحل الاختبار للالتحاق بسلك الجندية، وأنه كان يمارس علينا دون وعي منا اختبار "البسيكوتيكنيك"، وهو اختبار الهدف منه معرفة مدى صلابة المرشحين الذين سيصبحون ضباط المستقبل.

لبثنا واقفين في الساحة إلى حدود الساعة الواحدة بعد الزوال، بعدها طلب منا التحرك مثنى مثنى. اقتادنا نفس الجنود إلى بناية. دخلنا قاعة رحبة تتسع لأكثر من ثمانين طاولة، كانت مطعم المؤسسة. توزعنا على كراسٍ خشبية طويلة، كان الجوع قد هدني، والتعب نال مني، ولم يكن رفاقي بأفضل حال مني. ظننت أنني سألتهم كل ما سيقدم لنا ولن أترك ورائي أخضر ولا يابسًا.

لكن المفاجأة غير المتوقعة هي أن الخبز الذي قدم لنا وهو كومير كان أغلبه محشوا بخميرة ما زالت قطعًا صلبة نيئة تحت قشرته. رائحة الخميرة العطنة تزكم أنوفنا، وجعلت إمكانية تناول الكومير صعبة بحق. وُضِعَ أمام كل واحد منا صحن فيه قطعة لحم من المستحيل أن تمضغ. تذكرت اللحم الذي كان يقدم للطلبة في الجامعة وكانوا يحتجون بسببه. لو أنهم رأوا ما قدم لنا في ثانوية مولاي إسماعيل لحمدوا الله وشكروه على الترف الذي كانوا يتمتعون به.

أسقط في يدي مثلي مثل من معي، وما كان علينا أمام الجوع الذي يعوي كالذئب في بطوننا سوى أن نتعامل مع الوضعية التي وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه معها. تخلصت من الخميرة، وكل لباب الخبز، ولم يتبقَّ سوى قشرته، ورحت أغمس قطع الخبز في

المـرق، أضعها في فمي وأنا أحاول أن أنسـى تلـك الرائحة العفنة التـي كانت تصدر عنهـا. حين حاولت قضم جزء من قطعة اللحم، لـم أفلح في ذلك. حاولت لأكثر من مرة دون جدوى. كانت قطعة اللحم أشـبه بإطار عجلة شاحنة، من المسـتحيل مضغها. تحولت المأسـاة إلى ملهاة، وراح رفاقي يضحكـون، وهم يحاولون مضغ قطعـة اللحم الصلبـة. غادرنـا المطعم ونحن شـبه جوعى، وعدنا إلى نفس السـاحة مـرة أخرى، وقضينا بها ما تبقـى من النهار. عند الغروب عدنا إلى المطعم مرة أخرى، لم تكن وجبة العشاء بأفضل من وجبة الغداء. خبز نتن وحسـاء مقرف، ونفس قطعة اللحم التي تحتاج إلى آلة حادة لكي تمضغ.

أصبـح التوجـه إلى المطعم عقوبة أخرى تضـاف إلى عقوبات الوقوف طويلًا في السـاحة. كان بعض الجنـود يعاملوننا بصلافة. بعد يومين من إقامتنا في الثانوية احتج أحد المرشحين على جندي برتبة مساعد "Adjudant" بسبب سوء معاملته، فانقض عليه هذا الأخير وطفق يضربه ضربًا مبرحًا إلى أن أسـقطه أرضًا. كان الفتى المسـكين يصرخ من شدة الألم، وليس هناك من يخلصه من قبضة المسـاعد الأرعن. قال هذا الأخير للطالب بعد أن شفى غليله منه:

_ نعلم أمك الترابي.

هـذا الحـادث المؤلـم جعلني أحسـم أمـري، وأقـرر ألا ألتحق بسلك الجندية. وقد استغرب النقيب الذي كان يحرسنا خلال أول

حصة للاختبار الكتابي، حين أعدت له ورقتي بعد نصف ساعة من انطلاق الاختبار. قال مستغربًا:

_ لم هذا التسرع؟ خذ وقتك، لديك ثلاث ساعات.

أجبت:

_ كتبت ما استطعت من إجابات، لن أضيف جديدًا مهما بقيت.

قال النقيب:

_ كما تشاء.

نفس النهج اتبعته فيما تبقى من مواد الاختبار، وأخفقت إخفاقًا ذريعًا في اختبار التربية البدنية، وهكذا رسبت عن جدارة واستحقاق في مباراة الالتحاق بالأكاديمية الملكية للضباط، وأسعدني حقًّا هذا الفشل. وسعدت أكثر حين غادرت ثانوية مولاي إسماعيل، وعانقت الحرية مرة أخرى. تملكني شعور بفرح غامر، كأنني أنهيت أخيرًا مدة محكوميتي الطويلة في السجن.

ستظل هذه التجربة عالقة في الذهن، وكم مرة تساءلت: لو أنني نجحت في المباراة وأصبحت ضابطًا، أين كنت سأكون اليوم؟ الأكيد أنني سأكون وأنا في بداية عقدي السادس ضابطًا ساميًا. ربما أكون قد حققت مكانة اجتماعية ومادية أفضل من مهنة التفتيش، لكن الأكيد أنني سأكون قد حرمت من متعة قراءة آلاف الكتب التي مكنتني مهنتي الحالية من قراءتها، والأكيد أيضًا أنني

لم أكن لأتجاسر على الكتابة قط.

بهذه المقارنة الافتراضية أحمد الله مرة أخرى أنني لم أوفق في مباراة الضباط بالأكاديمية الملكية بمدينة مكناس، لألتحق بعدها بسلك التعليم الابتدائي. تجربة صعبة سأعيشها كمدرس، لكن ما كان يشفع لها عندي، أنها لم تحرمني من ممارسة هوايتي، والتي هي طبعًا القراءة دون توقف.

العودة إلى مدينة وجدة

الأسبوع الذي قضيته في ثانوية مولاي إسماعيل اعتبرته دهرًا كاملا، زمن سرمدي لا نهاية له، زمن يشبه الزمن الذي يقضيه المريض في المستشفى، والمعتقل في زنزانته. لأول مرة في حياتي أشعر أن زمن الأسر ليس هو زمن الحرية. كل دقيقة تصبح مضاعفة، وتأبى أن تمر. يضاف بطء النهار إلى بطء الليل، ليصبح اليوم يومين، والأسبوع أسبوعين، وهكذا دواليك. الأسبوع الذي قضيته بين جدران ثانوية مولاي إسماعيل كان أطول أسبوع عشته في حياتي.

عدت مع رفاقي إلى قريتنا. خلال الطريق كان الكل يروي ويعيد تفاصيل تجربته العسكرية التي عاشها في الثانوية. أشهر حادث كان يتندر به الأصدقاء ما وقع لصديق لنا كنا نطلق عليه لقب الكولونيل. ذات ليلة وبينما هو نائم مع زميل له في نفس السرير على علو ثلاثة أسرة هوى فجأة بعد أن غفا من العلو الشاهق ليسقط أرضًا. صرخ من شدة الألم، استيقظ كل من كان في قاعة النوم الكبيرة، وحين اكتشفوا سر الصراخ طفق البعض يضحكون، والبعض الآخر الذين أزعجهم إيقاظهم من النوم طفقوا يصرخون وهم يطالبون رفاقهم بأن يكفوا عن الضجيج، لعلهم يتمكنون من العودة إلى النوم .

هـذا الصديـق لـن يوفـق بـدوره في المبـاراة، سـيتابع دراسـته الجامعية، حصل على الإجازة في شعبة الشريعة الإسلامية ليلتحق بسـلك التعليم الابتدائي. سـيباغته الموت بعد سـنين قليلة وهو ما زال في شبابه، لينتقل إلى جوار ربه، رحمة الله عليه.

كان الأقارب والجيران على علم بأنني اجتزت مباراة الأكاديمية العسـكرية، وقبل أن نتوصل بالنتيجة كان الجميع وخاصة أخوالي وعمتـي وأبناءهـا ينادونني أيضا بـ "الفسـيان". لم أشـأ أن أخبر لا والدتـي ولا أقاربـي بأنني لن أكون ملازمًا، لأن رسـوبي في مباراة ضباط الأكاديمية العسكرية كان أمرًا محسومًا.

مـن حسـن الحـظ أنه قبـل أن يتـم الإعـلان عـن نتائـج مباراة الأكاديمية العسـكرية اتصل بي صديق وأخبرني أن اسـمه واسمي كانا ضمن لائحة المقبولين في مركز تكوين المعلمين. لم يسعدني الخبـر كثيـرًا، لكنني قلـت بيني وبين نفسـي: علـى الأقل ضمنت وظيفة لا شك أنها ستسعد والدتي.

وبالفعل أسـعدها الخبر، كما أسـعد باقي إخوتها وأباها، الذي تنفس الصعداء وهو يرى مشـكلة ابنته وقد شـارفت على الانتهاء. رمى الحمل من على ظهره وهو ينتظر أن أحمله بدلًا منه إلى الأبد. هـذا القبـول عوض النبـأ الـذي بلغني بعد مدة بفشـلي فـي مباراة بالضباط . لم آسـف على عـدم توفقي في مباراة الالتحاق بسـلك الجنديـة، لأنني كنت أعلم مسـبقًا كما أسـلفت أننـي لم أخلق كي

أكون ضباطًا عسكريًا.

لـم يبق أمامي سـوى أن أحسـم أمري بشـأن مواصلة دراسـتي الجامعية، أو الانتسـاب إلى سـلك التعليم. أيام عصيبة عشتها غير قادر على إنهاء حلم متابعة الدراسـة. انتبهـت والدتي إلى ترددي، كانـت تعلـم مدى حبي للدراسـة، لذلـك اختلت بي يومًـا وقالت رحمها الله كي تساعدني على اتخاذ القرار السليم بوعي ومسؤولية:

_ أعرف يا بُني مدى رغبتك في مواصلة الدراسة، لكنك تعرف وضعنا الصعب، ولن أضغط عليك إذا أردت أن تواصل دراستك. افعل ما تراه صائبًا، وما قدر الله لا بد أن يصير.

احترت وأعياني التفكير، ولم أتمكن من اتخاذ القرار الصائب. من سـيجعلني أحسـم قـراري وألتحـق بمركـز تكويـن المعلمين هـي تلـك الصديقة التي فقدت خطيبها بسـبب حادثة سـير، والتي جئـت على ذكر بعض من سـيرتها في الصفحات السـابقة من هذه المذكرات.

أذكـر الحديث الذي دار بينـي وبين تلك الصديقة ذات مسـاء. طرقـت بـاب بيت صديقـي، وفجأة أطلـت زميلتي عليَّ من سـور السـطح، وكانت تكتري غرفة في بيت صديقي. سألتني بعد التحية عما أنوي فعله. أجبتها:

ـ مـا زلت أهفو إلى الذهاب إلى مدينة وجدة لمتابعة دراسـتي في الجامعة.

قالت:

ـ لكنك قُبِلتَ في مركز تكوين المعلمين، على حد علمي.

ـ نعـم، لكنني ما زلت مترددًا بين الالتحاق به أو مرافقتكم إلى الجامعة.

عندهـا قالـت الجملـة التـي سـتجعلني أتخلـى عن الدراسـة، وألتحق بسلك التعليم:

ـ اسـمع منـي نصيحة سـي عزيز. أن تكون معلمًـا قد يبدو لك الآن أمـرًا تافهًـا، وربمـا لا يسـتجيب لطموحـك وأحلامك. لكن ما أخشـاه هو أن يأتي يـوم يصبح الحصول علـى وظيفة معلم ولو بشهادة الإجازة مسألة صعبة بحق.

اليـوم وبعد مرور كل تلـك العقود، لديَّ اليقين أن القدر هو من رتب تلك المحادثة، وسمعت ما سمعت من زميلتي، تلك التلميذة الراجحة العقل، كي تجعلني أحسـم أمري، وأقرر الالتحاق بمركز تكوين المعلمين. سـيقول بعض قرائي إن الظروف هي من أجبرك على اختيار التدريس، ولا علاقة للقدر أو للغيبيات بما قررت. هذا الرأي لا يخلو من صحـة طبعًا، لكنني اقتنعت، وزادت قناعتي مع السنين أن التحاقي بسلك التعليم لم يكن صدفة، بل كان قدرًا مقدورًا.

قدرنا نسير فيه خطوة خطوة شئنا أم أبينا. وما زلت حتى اليوم مقتنعًا بقول الروائي "ماريو بيزو" صاحب الرواية الشهيرة "العراب _ Le Parrain": "كل إنسان ليس له سوى قدر واحد". وهذه الملاحظة ستتأكد لي أكثر من خلال ما عاينته في مسيرتي الشخصية، ولدى أشخاص آخرون عرفتهم عن كثب. فمثلًا ذلك الصديق الذي رافقنا، وكان أكثرنا حظًا لأنه لم يكتفِ بالنجاح في مباراة الأكاديمية العسكرية، بل تم قبوله في المركز التربوي الجهوي CPR، وقُبِل أيضًا في مركز تكوين المعلمين.

سيلتحق صديقنا هذا بالأكاديمية العسكرية، لكنه سرعان ما سيغادرها غاضبًا، لأنه كان قد فاز في سلك ضباط القوات المساعدة، وحين التحق بالأكاديمية العسكرية سحب منه منصبه ومنح لشخص آخر، ليتم إلحاقه بسلك القوات البرية، فقرر المغادرة.

سيلتحق بالمركز التربوي الجهوي بمدينة فاس، وبعد سنته الأولى ودون أن يفهم أحد سبب تصرفه الغريب غادر المركز رافضًا مواصلة الدراسة فيه. وبما أن فرصة الالتحاق بمركز تكوين المعلمين كانت قد ضاعت منه، فقد خرج صاحبنا خاوي الوفاض، في الوقت الذي منحت له ثلاث فرص لم تمنح لأي أحد منا. سيبقى هذا الصديق دون عمل. إخوته هم من تكفلوا بمساعدته إلى أن أنقذه ابنه البكر الذي نجح في سلك القضاء.

كيف يمكن فهم ما وقع لهذا الشخص، الذي أُعطِي ما لم نعطَ، وضاعت منه الفرص الثلاث. تبدو لي الإجابة صعبة بحق، بينما قد تبدو لغيري سهلة. إذا اعتبر من يخالفني الرأي أن ذلك الصديق لم يكن ذكيًا بما يكفي ليتحمل المسؤولية فيما حدث له فلن يكون بوسعي منطقيًا الاعتراض على هذا الرأي، لكن قناعتي الشخصية كانت وما تزال أن كل شيء كتب منذ الأزل. رفعت الأقلام وجفت الصحف، ولا يمكن لأي صياد أن يؤكد أنه اصطاد طائرًا إلا إذا أمسكه بين يديه.

سأذكر هنا واقعتين وقعتا لي في صباي عززتا هذه القناعة لدي، طبعًا لا أطلب من القارئ أن يتبنى قناعتي، هي لي أنا فقط كما أسلفت، وعلى حد قول الكاتب أرنست همنغواي: "لا أروي سوى ما رأيت أو سمعت". ولكل طبعًا قناعاته، والاختلاف في الآراء والقناعات بين البشر دائم وأزلي.

الواقعة الأولى والتي عشتها وأنا تلميذ في السنة الثالثة للابتدائي، لم أنهِ عقدي الأول بعد، لا أدري ما الذي دفعني ذات يوم، وكنت وحيدًا في إحدى غرف البيت، إلى إمساك قلم أخضر اللون رسمت به على ورقة بيضاء إطارًا، وكتبت بقلم مغاير داخل الإطار عنوان قصة، أو لعلها رواية لا أذكر، وتحت العنوان كتبت اسمي ككاتب لهذا العمل الذي لم أكتبه، والذي لم أكن أملك أي فكرة عنه. دخل ابن عمي، وكان يتيم الوالد رباه أبي، رأى

مـا صنعـت فراح يسـخر مني. كان من حقه أن يسـخر، وأنا نفسـي تسـاءلت وقتها: لماذا رسـمت ذلك الإطار؟ ولمـاذا كتبت عنوان قصة أو رواية وتحتها اسـمي ككاتب؟ فـي الوقت الذي كنت أجد صعوبـة فـي تركيـب جملة مفيدة، لم أسـتطع أن أجيـب وقتها عن سؤالي، واعتبرت فعلتي مجرد لعب طفل صغير ليس إلا.

الواقعـة الثانيـة تمت وأنا في نهاية سـلك التعليم الثانوي. كنت أقيـم عنـد عمتي فـي مدشـر "زادرة"، وكانت هناك سـيدة اسـمها "زَرِّيقـة"، سـيدة تعيش وحدها بعد أن توفي عنهـا زوجها الذي لم تنجب منه. مظهرها يشـبه الغجريات، واشـتهرت في المدشر بأنها تمارس السحر.

كنت أراها بين الفينة والأخرى، وكنت أتجنبها لما سمعت عنها من أقاويل سـلبية. ذات مسـاء وكنت مارًا بجوار بيتها الذي تحيط به الأشجار ونبات العوسـج، جاءني صوتها ينادي باسمي. التفت فرأيتها واقفة كأنها شـبح انسـل من عتمة العدم. كانت ترتدي ثوبًا بألوان عديدة لا انسـجام بينها، وعلى رأسها وشاح أسود. أشارت إلـيَّ بالدنو منها. ترددت، خشـيت أن أقترب منها، وكأنها قرأت ما يجول بين تلافيف دماغي، ابتسـمت فانتشـر المزيـد من التجاعيد على وجهها المتغضن، وقالت:

_ اقترب لا تخشَ شيئًا.

كان صوتها لطيفًا ودافئًا، لا يتناسب مع ملامح وجهها الذي فقد كل أثر للأنوثة. تشجعت ودنوت منها. ساد الصمت لثوانٍ معدودة، راح كل واحد منا يتأمل الآخر. أنا كنت أحاول أن أسيطر على ارتباكي أمام امرأة يتهمها الكل بالشعوذة، وهي ربما كانت تريد أن تتسرب إلى دماغي لتعرف من أكون. فجأة قطعت الصمت قائلة:

_ أريدك بني أن تأتيني بقالب سكر من الدكان.

مدت نحوي يدها بالنقود حتى قبل أن أوافق على طلبها. كان أول لقاء بيننا. لم تسألني من أكون ولا ما اسمي، كأنها كانت تعرف كل معلوماتي الشخصية. ذهبت إلى الدكان الذي لم يكن بعيدًا عن بيتها. اشتريت ما طلبت مني. حين عدت لم أجدها في انتظاري. طرقت الباب فجاءني صوتها قائلا:

_ ادخل.

لا أدري من أين واتتني الشجاعة، ولا كيف استطعت الدخول. وجدتها وقفت تمسك في يدها اليسرى إناءً بلاستيكيًا تنثر منه الحبوب لدجاجها.

قدمت لها السكر وأعدت لها النقود. شكرتني. طلبت مني أن أحتفظ بالباقي فرفضت. ساد الصمت بيننا. فجأة خطرت ببالي فكرة لا شك أنها كانت في وقتها رعناء وفيها الكثير من المجازفة. سألتها:

_ هل لي يا خالة أن أسألكِ سؤالًا لو سمحتِ؟

ابتسمت وقالت:

_ تفضل.

_ يقال إن لديك قدرة على استطلاع الغيب، هل ما سمعته صحيح؟

ابتسمت مرة أخرى وقالت:

_ من أخبرك بذلك؟

_ سمعت بعض الأشخاص يتحدثون بذلك.

عاد الصمت يلفنا. فجأة سألتني:

_ هل تريد أن أكشف لك عن مستقبلك.

أجبت دون تردد:

_ نعم.

قالت:

_ اذهب الآن، وعد إلي غدًا بقطعة من ملابسك.

ودعتها وغادرت. من حسن الحظ أنه لا أحد من أبناء عمتي أو ممن يعرفها رآني وأنا أدخل وأخرج من بيتها. تساءلت بيني وبين نفسي عن جدوى ما طلبت من سيدة متهمة في عقلها.

في صباح اليوم الموالي نهضت متأخرًا من النوم. تناولت

إفطاري ثم قصدت بيت المرأة العجوز أحمل معي قميصًا.

استقبلتني بالترحاب، قالت مبتسمة:

ـ يبدو أنك على عجلة من أمرك، تريد أن تعرف طالعك بسرعة.

قلت وأنا أقدم لها القميص:

ـ نعم للا زَرِّيقة.

. تناولته ثم قالت:

ـ اذهب الآن، وحين يخيم الظلام عد إليَّ.

قضيت سحابة يومي أنتظر على أحر من الجمر، انشغلت بالقراءة، لكنني لم أتمكن من استيعاب ما كنت أقرأ. وحين حل الغروب أخيرًا قصدت بيت السيدة زريقة. قالت مبتسمة وهي تراني:

ـ أهلا بُني، تفضل اجلس.

جلست. أعادت لي قميصي ثم جلست على كرسي عتيق أمامي. تأملتني مليًا ثم قالت:

ـ ما سأخبرك به هو ما رأيته حقًا، ولك أن تصدق أو تكذب ما ستسمعه مني.

أجبت:

ـ لا عليكِ، أخبريني فحسب.

قالت:

_ أول ما سأخبرك به هو أن والدتك ستموت بعد عمر طويل قبل والدك. والأمر الثاني هو أنه إذا واصلت دراستك فستكتب كتبًا.

اهتز قلبي في صدري بسبب ما قالته عن أمي، أيقظتني على حقيقة الموت، كنت قبلها كمن يستبعد الموت عن والديه، ويعتبرهما خاصة أمه من المخلدين. وإذا كنت قد قبلت منها – وبصعوبة_ احتمال موت أمي قبل أبي، فإن الأمر الذي لم أصدقه، وأكد لي أن المرأة تهرف بما لا تعرف، هو قولها إنني سأصبح كاتبًا. نعم كنت أقرأ وأحب أن ألتهم كل ما يقع بين يدي، لكن الكتابة وبكل صدق لم تكن من مشاريعي المستقبلية. لم أكن أرى نفسي كاتبًا يومًا ما. شرف أن أصبح أديبًا يكتب الكتب، كان أمرًا بالنسبة لي وقتها جللًا عظيمًا صعب المنال. لم يخطر ببالي قط أن أكون واحدًا من بين حملة القلم.

ستمر السنون والعقود، وسيتحقق بالفعل ما تنبأت به السيدة زريقة رحمها الله، ستلتحق أمي بجوار ربها قبل أبي، وسأتجرأ على الكتابة وأخطب ودها، لأنجب منها حتى الآن ثلاثة عشر مؤلفًا، ما بين قصة قصيرة ورواية وشعر، وهذه المذكرات، وأعمال أخرى مكتوبة ما زالت تنتظر فرصتها في الطبع لتخرج إلى الوجود.

هذه الأحداث الجانبية التي استطردت فيها جئت بها لأؤكد أننا حقًا نعيش قدرنا، قدرًا واحدًا ووحيدًا، كُتِب لكل واحد منا أن

يسلكه، ويحق للمعترض أن يعترض على قولي. نعم لا أختلف مع من لا يتفق معي على أننا أبناء وضعنا الاجتماعي والاقتصادي، ونعيد إنتاج الطبقات على حد قول "بورديو" و"باسرون" وكل علماء الاجتماع الذين اهتموا بهذا الموضوع، ليظل الغني غنيًا والفقير فقيرًا. لكن للقدر أيضًا كلمته في مسار حياتنا القصير. لماذا ولدت في مكان ما ولم أولد في مكان آخر؟ لماذا جئت من ظهر شخص هو والدي بالضبط ولم يكن أبي شخصًا آخر؟ لماذا.. لماذا.. إنها أسئلة ستظل معلقة، ولا أحد يستطيع الإجابة عنها.

مركز تكوين المعلمين

الشـرط الأساس ليتم قبولك النهائي في مركز تكوين المعلمين هو أن تقدم للإدارة المعنية النسـخة الأصلية من شـهادة البكالوريا كمـا قلت سـابقًا. بالتوظيف ينتهي حلـم متابعة الدراسـة لكل من صـار معلمًـا. مفارقة غريبة حقًـا أن يحرم الذي سـيعلم النشء من التعليم. سـنة من التكوين الأساس واللقاءات القليلة مع المفتشين لـم تكن كافية لتطويـر كفاءته كمـدرس معرفيًـا وبيداغوجيًا. أظن أن الـوزارة كانـت تعتقد أن مـا تلقيناه من تكوين أسـاس في مراكز تكويـن المعلميـن كاف ولا حاجـة لهـا في فتح باب سـيجر عليها مشـاكل هي فـي غنى عنها. في هذا الوقت الـذي أتحدث عنها أي في الثمانينيات وما قبلها، إذا حصل المدرس على شـهادة الإجازة فسـيطالب الوزارة بالترقي بالشهادة، ولكي تمنع المعلمين من هذا الحق منعتهم من متابعة الدراسة الجامعية، والحصول على شهادة الإجازة، التي تمنحهم الحق في الترقي من السلم الثامن إلى السلم العاشر. هكذا أقفلت وزارة التربية هذا الباب لتريح وتستريح.

مـدة التكوين في مركز تكوين المعلمين كانت سـنة كما ذكرت سالفًا. يزاوج فيها الطالب المعلم ما بين التكوين النظري والعملي.

يتلقى دروسًا في مختلف المواد، لتعميق وتعزيز المكتسبات التي سبق له وأن درسها خلال المرحلة الابتدائية والإعدادية. ما درسناه في المركز لم يقدم لنا جديدًا يُذكر. مضامين اللغة العربية، الرياضيات، العلوم الطبيعية والفيزياء، سبق أن درسناهم في الأسلاك السابقة. فباستثناء مادة علوم التربية والتشريع كانت الحصص الأخرى روتينية تشعرني بالملل.

بالنسبة للتكوين التطبيقي تم توزيعنا إلى مجموعات. كل مجموعة تضم ثمانية طلاب. خصصت لنا مدارس يطلق عليها المدارس التطبيقية، نقصدها مرتين في الأسبوع لنتمرن على تقديم الدروس للتلاميذ. تنتهي السنة التكوينية بامتحان في مختلف المواد داخل المركز. بعدها يجتاز الطالب المعلم امتحانًا تطبيقيًا أمام لجنة يترأسها مفتش تربوي، يصاحبه مدير ومدرس. يقدم الطالب المعلم درسين أمام اللجنة، تليه مناقشة، لتمنح له النقطة التي يستحق.

عندما كنت تلميذًا في السلك الابتدائي إبان فترة السبعينيات كنت معجبًا جدًا بأساتذتي. الصورة التي ما زلت أحملها للمعلمين الذين درسوني حتى الآن كانت راقية ومغرية. كان المدرسون يأتون إلى المؤسسة التعليمية في أبهى حلة. يرتدون على الدوام بذلًا أنيقة. وكثيرون منهم كانوا يملكون سيارات جديدة، خاصة سيارة Fiat124 التي كانت وقتها آخر مبتكرات شركة فيات الفرنسية.

وضـع المعلميـن وقتها كان بحـق محترمًا اجتماعيًـا. وكانت مهنة معلـم بالفعـل مهنـة جاذبة، عكس مـا لاحظت وأنـا أرى في بداية التحاقـي بالمهنـة أولئـك المعلميـن المؤطريـن، الذيـن كان يبدو ضيـق ذات اليد على وجوههم المتغضنة، وملابسـهم المتواضعة. وتعزز لدي الاقتناع بأن مهنة مدرس ابتدائي مهنة الفقر بامتياز حين أصبحت واحدًا منهم.

مكانـة المعلمين والأسـاتذة خاصة بعد إضرابات سـنة 1979 سـتتراجع بشـكل لافـت. الدخـل الهزيل أثـر بشـكل تلقائي على مكانتـه الاجتماعية، ليصبح الذي جـاء في الرتبة الثانية بعد الأنبياء _ على حد قول أحمد شـوقي_ مادة دسمة للتنكيت. الشيء الذي أفقـد الطفـل رجل المسـتقبل نموذجًا متميـزًا يقتدي بـه، كما كان الحال بالنسـبة لنا جيل السـتينيات وبداية السبعينيات. نعم، أصبح المعلـم يُنتقَـد لضعف راتبـه، ولا تقدر فئـة عريضة مـن المجتمع الـدور التربوي الذي يلعبه هذا المعلم التلميذ في تنشـئة الأطفال. هـذا التبخيس انعكس على المـدرس أولًا، وعلى المتعلمين ثانيًا، لينقلـب الهرم القيمي في المجتمع رأسًـا على عقب. الجري وراء المال بكل الطرق أصبح شعار فئة عريضة، وهم لا يلامون، ما دام المال هو عصب الحياة ومعشوق الناس الأول.

الزمن الجميل للتعليم يذكره محمد شكري في روايته "الشطار"، وهي الجزء الثاني لرواية "الخبز الحافي" لسـيرته الذاتية، يقول في

الصفحة التسعين: "عندما نجحت في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين أحسست كأنني ولدت من جديد، اعتقدت أنني بنيت جدارًا منيعًا بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، الجهل والبؤس".

بالنسبة لي على الأقل، وحتى أجنب نفسي التطاول على رأي باقي المعلمين، يمكنني قلب مقولة شكري دون تردد، لأقول: "عندما قبلت في مركز تكوين المعلمين والتحقت بالعمل، وعينت في الفيافي والقفار، أحسست كأنني مِتُّ مرة أخرى، وهدمت جدارًا لم يكن منيعًا بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، الجهل والبؤس".

هذا كان ولسنين طويلة رأيي في مهنتي، ولكُلٍّ رأيه، صائبًا كان أم خاطئًا. ودعونا الآن نربط السابق باللاحق، فبعد أن قررت أن أصبح معلمًا، سافرت إلى مدينة وجدة لأسحب شهادة البكالوريا الأصلية. وصلت إلي عاصمة الشرق قبل منتصف النهار، اتجهت على متن سيارة أجرة صغيرة إلى الجامعة، قصدت مكتب شؤون الطلبة. أخبرت الموظف أنني أريد سحب شهادة البكالوريا. طلب مني الوصل، فقدمته له. نهض واتجه إلى غرفة أخرى مجاورة لمكتبه، بعد دقائق معدودة عاد يحمل الشهادة. قدمها لي فشكرته. وقبل أن أغادر سألني:

ـ إلى أي قطاع ستنتمي؟

قلت:

_ سألتحق بمركز تكوين المعلمين.

قال الموظف:

_ خيرًا فعلت، "سير تخدم على رأسك"، لو بقيت هنا وحصلت على الإجازة بعد أربع سنوات، هذا إذا لم تكرر أي سنة، ستكون الإجازة شرطًا أساسيًا للانتساب إلى سلك التعليم الابتدائي. قوله ذكرني بقول زميلتي السابقة. سيثبت الزمن صحه تنبؤهما معًا، فباستثناءات قليلة كل أصدقائي وزملائي الذين حصلوا على الإجازة كان مصيرهم التعليم الابتدائي.

أثناء عودتي من مدينة وجدة مررت بمركز تكوين المعلمين بمدينة تازة. قدمت للإدارة شهادة البكالوريا الأصلية. قدم لي موظف متجهم الوجه مطبوعًا، وطلب مني أن أذهب به إلى المقاطعة من أجل المصادقة عليه. قرأت المطبوع، كان التزامًا يشترط على معلم الغد ألا يغادر سلك التعليم الابتدائي إلا بعد إنهاء ثماني سنوات من الخدمة الفعلية.

طبعًا الالتزام على الرغم من قانونيته كان ذا طابع شكلي، فكل من التحق بوزارة التربية والتعليم قلما غادرها. أين المفر؟ حين لا يكون هناك بديل آخر معقول وواعد فإن الاحتفاظ بما تملك يكون أضمن. الذين غادروا مجال التعليم هاجروا دون تقديم استقالتهم إلى أوروبا، ليتخلصوا من براثن الفقر، ويحققوا مكانة اجتماعية أفضل.

ستغري وزارة التربية بعد عقود في عهد الوزير الاشتراكي محمد المالكي رجال التعليم بالمغادرة، مقابل إغراءات مادية محفزة، سميت تلك الخطة وقتها بـ "المغادرة الطوعية". كانت هذه المبادرة فرصة لم تتكرر بعد، استغلها الأذكياء من رجال ونساء التعليم بمن فيهم السيد الوزير، الذي أشيع عنه أنه استقال من منصبه كأستاذ جامعي ليستفيد مما قرره كوزير. أغلق هذا الباب بسرعة، ولو أنه فتح بنفس الصيغة مرة أخرى لما بقي إلا النزر القليل من رجال ونساء التعليم في الأقسام.

الأسف الذي رافقني منذ أن سحبت شهادة البكالوريا من جامعة محمد الأول بوجده سرعان ما تبخر حين رأيت الفرحة ترتسم على وجه أمي. بريق من السعادة شع من عينيها، وابتسامة عريضة ارتسمت على شفتيها، لقد حققت لها ما كانت تتمناه دون أن تفرضه علي فرضًا. كانت تضحية قبلت بها بصبر أيوب، ودامت المهمة لعقود.

اعتزازي بالمسؤولية التي قررت حملها على عاتقي سرعان ما غاض حين التقيت ببعض أساتذتي مباشرة بعد تسجيلي النهائي في مركز تكوين المعلمين. كان أغلب أساتذتي الذين كانت لي معهم صلة صداقة قوية يتوقعون لي المضي قدمًا في الدراسة الجامعية. العديد منهم لم يتوقع أن ألتحق بالتعليم الابتدائي. أستاذ اللغة الفرنسة مثلًا، والذي كنت من بين تلاميذه النجباء، قال مصدومًا حين أخبرته بوجهتي الوظيفية:

_ C est pas vrai

كنا نحترم أساتذتنا، بل ونجلهم، صمتُّ ولم أجب. أضاف قائلًا:

_ كنت أريدك أن تواصل دراستك، لكن بما أنك اخترت الوظيفة، فما علي سوى أن أتمنى لك التوفيق.

الأستاذ الثاني الذي صدمني رأيه بحق هو أستاذ الاجتماعيات. لم يكن ابن البلدة، ولم أرَه بعدها أبدًا. لا أدري هل ما يزال على قيد الحياة أم رحل إلى دار البقاء. التقيت به بالصدفة ذات يوم، كان برفقة أستاذ آخر، سلمت عليهما، سألني عن الشعبة التي اخترتها في الجامعة، أخبرته أنني لن أذهب إلى الكلية، لأنني سألتحق بمركز تكوين المعلمين. التفت إلى الأستاذ المرافق له وقال ضاحكًا _ أو بالأحرى ساخرًا_ جملة ستظل راسخة في الذهن:

_ هؤلاء هم حمير الأجيال.

فاجأني قوله. شعرت بالغضب من التوصيف السلبي لمهنة معلم. خطر ببالي أن أجيبه:

_ وأنتم؟ ألستم بغال الأجيال؟

لكنني كنت كما أسلفت، لا أستطيع أن أجادل أستاذتي احترامًا لهم. هذه الواقعة أكدت لي مرة أخرى أن رجال التعليم هم أنفسهم ينظرون إلى المهنة نظرة سلبية. وصورة المعلم حتى

عنـد رجال التعليم منحطة. وإذا كان أهل الدار يسـخرون من مهنة المعلم وهم زمـلاء لهم، فكيف نطلب من باقي فئات المجتمع أن يقدروها ويحترموها؟

هـذا التعبيـر أو بالأحـرى القدح لم يكـن آخر توصيف سـلبي أسمعه وأنا على عتبة ولوج مهنة التعليم الابتدائي. ففي أول حصة لنـا مع أسـتاذ اللغة العربية فـي مركز تكوين المعلمين سـيعود هذا الأسـتاذ، وكان رجلًا ملتحيًا لا تفارق الابتسامة ثغره، إلى توظيف اسـم الحمار في خطابه معنا. لم يستحضر أستاذنا الحيوان الأليف هـذه المرة بقصد التجريح والإهانة، بل بغاية التشـجيع والإشـادة بنبل مهمة المعلم في المجتمع. بعد مقدمة قصيرة قال:

_ أنتم عيون الحمير.

ضحكت بيني وبين نفسـي. تذكرت ما سـمعته من أسـتاذ مادة الاجتماعيات سابقًا، وتساءلت: ما سر ربطنا على الدوام بهذا الحيوان المحترم الذي لم يرتكب أي جريرة تجعل الإنسان يحط من قدره؟

احتـرت كمـا احتـار زملائي، وكنـا أكثر مـن عشـرين طالبًا في القسـم، من هذا التشـبيه، ولـم نفهم قصد أسـتاذنا. أدرك ما يجول بأذهاننا، فقال:

_ لا تسـتغربوا قولي، أنا لم أقصد أي معنى سـلبي مما يتداول فـي المجتمع كلما جاء أحدهم على ذكر سـيرة الحمار. ما قصدته

بقولي هو أنكم بعدما تتخرجون في هذا المركز ستكلفون بتدريس أطفال لا يعرفون القراءة والكتابة. هؤلاء الأطفال هم الحمير، وأنتم ستكونون عيونهم التي يرون بها، أنتم من سيخرج النشء من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والحياة.

هكذا أصبح لدي مثالان: الأول يعتبرنا مطية للأطفال على حد قول أستاذ الاجتماعيات، والثاني يعتبرنا عيونًا للحمير، أي للتلاميذ الذين سندرسهم. القاسم المشترك بين التوصيفين هو تلك الدابة الصبور. والفرق بينهما أن الوصف الأول يبخس مهنة المعلم، والثاني يبخس قدرات الطفل العقلية، ويعتبر التلميذ مجرد حمار. بمعنى أنه يأتي إلى المدرسة صفحة بيضاء لا يملك أي معارف مسبقة، مثله مثل الحمار. مع العلم أنه تأكد علميًا أن الطفل لا يأتي صفحة بيضاء إلى المؤسسة التعليمية، والحمار الذي ينعت بالجهل لا أحد حتى الآن أثبت أنه جاهل، ولنفرض أنه كذلك، فإن الذي خلقه لم يتركه دون أن يمنحه من المعارف المبرمجة ما ينير بها سبيله.

ومن المفارقات المضحكة أيضا، أن تعييني مثل الكثيرين من المعلمين سيتم في مداشر نائية، ليكون الحيوانان الأكثر حضورًا فيها هما الحمار والبغل.

سأجد نفسي في أول تعيين لي في مجال جغرافي واجتماعي ينتمي إلى العصر الوسيط. عالم لا تتوفر فيه أدنى مقومات العيش

الكريم. مدشر مركزه مدرسة يتيمة تتألف من قسمين من النوع المفكك، منازل السكنى مشتتة، والتلاميذ يقطعون مسافة طويلة للوصول إلى المدرسة، البنية التحتية تساوي صفرًا، لا ماء ولا كهرباء، والطريق المعبد الذي يصل هذا العالم بأقرب مدينة يبعد عن المدشر بعدة كيلو مترات.

المناخ في بداية الثمانينيات كان ما يزال قاسيًا. يمتد زمن التساقطات المطرية والثلجية لفترات طويلة، مما كان يحرم التلاميذ من القدوم إلى المدرسة، لنبقى نحن المدرسين معزولين في الزمان والمكان، كأننا نعيش في كوكب آخر. ومن عجب أن بعض زملائنا الذين لم يوفقوا في الحصول على أي وظيفة، بما فيها وظيفة معلم، بعد حصولهم على الإجازة اضطروا لمواصلة دراستهم الجامعية، وتمكنوا من نيل شهادة الدكتوراة، ووجدوا لهم منصبًا في الجامعات. جُوزيَ النجباء بوظائف بسيطة، ومن كان أقل منهم كفاءة واصلوا مشوار الدراسة، وحققوا الأفضل لأنفسهم. سأتذكر مقولة لوليام فوكنر مهمة ومعبرة بحق: "لا تتمنَّ لابنك أن يكون ذكيًا، بل تمنَّ له أن يكون محظوظًا". وتأكد لي من ملاحظات وتجارب عديدة أن الحظ بالفعل أهم من الذكاء.

لنعُدْ مرة أخرى إلى مركز تكوين المعلمين بمدينة تازة. التحقت به في الموسم الدراسي (83_84). هذه المؤسسة التربوية تتواجد في تازة العليا. تازة _ لمن لا يعرفها_ تتألف من مدينتين: المدينة

العتيقة، وهي التي تسمى بهذا الاسم وتوجد على مرتفع جبلي، بينما تازة السفلى وهي المدينة الحديثة، وتشكل الامتداد والتوسع العمراني المصمم على الطريقة العصرية.

إلى حدود تلك السنة كان مركز تكوين المعلمين، يوفر التغذية والإيواء. بعد التحاقي الرسمي بالمؤسسة قصدت إدارة الداخلية، كان مديرها ينحدر من أصول ورايْنيَّة. سلم لي مفتاح الغرفة التي سأتقاسمها مع طالبين. كانت الغرفة أقرب إلى زنزانة منها إلى غرفة، بالكاد تتسع لثلاثة أسِرَّة.

وعلى الرغم من أن الداخلية لم تكن مصممة لموظفي المستقبل، بل كانت مجرد داخلية مثلها مثل داخلية التلاميذ، فقد كان فوج سنة 1984 وطلاب الأفواج السابقة محظوظين لحصولهم على الإيواء والتغذية. سنون قليلة بعد ذلك وستغلق الداخلية أبوابها، ويكون على الطلاب تدبر أمر إقامتهم وتغذيتهم بأنفسهم.

انطلقت الدراسة في منتصف شهر شتنبر، لنبدأ رحلة ما قبل الالتحاق بالوظيفة العمومية، والحقيقة أننا قانونيًا كنا قد التحقنا بها، بدليل أن أول حوالة وصلتنا من الوزارة، والتي كان مبلغها خمسمائة وخمسين درهمًا، ضمت رقم التأجير الذي سيرافقنا طيلة حياتنا الوظيفية.

كما أشرت إلى ذلك سابقًا، أثارني ضعف التكوين الذي لمسته في مركز تكوين المعلمين، نفس الملاحظة سأسجلها أيضًا في

مركـز تكوين المفتشـين. قضينا في هذه المؤسسـة ثلاث سـنوات كطلبة مفتشـين، كانت سـنوات عجاف، والتكوين لم يكن يتطلب تلك السنوات الثلاث التي أخرتنا عن مزاولة عملنا ليس إلا.

فـي مركـز تكويـن المعلمين كمـا هو الحـال في مركـز تكوين المفتشـين، وأظـن أن الحـال هـو نفسـه في باقـي مراكـز التكوين الأخـرى، كان الشـعار الذي يرفع فيها ، هـو: "إذا أردت أن تَتَكَوَّن فَكوِّن"، أي "ديها فسـوق رأسك" كما يقول المغاربة. بهذا الشعار الحكيم قضيت سنة في مركز تكوين المعلمين، وثلاث سنوات في مركز تكوين المفتشين.

ملاحظـة أخرى سأسـجلها بخصوص مركز تكويـن المعلمين بتازة، تتعلق بموقعه. كان يقع بالقرب من مقبرة، وأمامه ساحة يطلق عليهـا المصلـى. أظن أن سـكان الحي المجـاور للمركز في وقت مضـى كانوا يصلـون صلاة العيد فيها، وربمـا حتى على الأموات.

سـألاحظ بعـد عملي لسـنوات في العديـد من قـرى المغرب كمدرس ومفتش، أن المؤسسـة التعليميـة كانت في الغالب الأعم تقع بجوار المقبرة. هل هي صدفة أن يجاور الموت مدارسـنا؟ أم أن للموقع دلالة خفية؟ لن أدخل في التأويل، ما أريد الإشـارة إليه أن سـبب تواجد المدارس قرب الجبانات كان المتحكم الأسـاس فيـه هـم السـكان. لـم يكن مالكـو البقـع الأرضيـة المناسـبة لبناء مدرسة يرضون بأن يمنحوا الدولة أرضهم لتنشئ عليها الحجرات

التعليميـة. الأرض مورد رزق، ولا يمكن الاسـتغناء عنها من أجل مؤسسة فقد أغلب السكان و منذ زمن ثقتهم فيها.

أمام رفض السـاكنة، يبقى الخيار الوحيـد أمام مصلحة البنيات هـو إلحـاق المدرسـة بالمسـجد، الـذي غالبًـا مـا يتواجـد بدوره بجوار المقبرة. سـأعيش واقعة تؤكد أن المدرسة بالفعل أصبحت مرفوضـة من قبـل آباء وأولياء أمـور التلاميذ. واقعـة اعتقدت أنها كانـت تتم فقط في عهد احتلال فرنسـا لبلادنا لا في زمن المغرب المسـتقل. في عهد الاسـتعمار كان الأهل يرفضون إلحاق أبنائهم بالمدرسة الفرنسية، مخافة عليهم أن يصبحوا على ملة الفرنسيين.

كنت أعمل في مدشر ينتمي إلى دائرة رباط الخير، التي تتواجد بإقليم صفرو حاليًا. رافقت ذات يوم المقدم للقيام بحملة لتسجيل الأطفال الذين بلغوا سـن الدراسة. فوجئت بأب يرفض أن يلتحق ابنه بالمدرسة. حاولت إقناعه لكن دون جدوى. طلبت من المقدم بحكـم معرفتـه الشـخصية بكل سـكان القريـة أن يتدخـل، حاول بدوره، وبدلًا من أن يستجيب الأب صرخ في وجه المقدم قائلًا:

_ لماذا ترغمني على إلحاق ابني بالمدرسة؟

أجاب المقدم وكان يدعى رحو:

_ لمصلحـة ابنـك، ثـم إن وزارة الداخليـة أمـرت الشـيوخ والمقدميـن بالمشـاركة مـع المعلمين في حملة تسـجيل الأطفال

ليلتحقوا بالمدرسة خلال الموسم المقبل.

قال الرجل بسخرية:

_ ولماذا غضضت الطرف عن ابن فلان وفلان، وأبناؤهم بلغوا سن الدراسة أيضًا؟ هل لأنهم قدموا لك رشوة؟

كاد الأمر يتحول إلى عراك بالأيدي بين الرجلين، لولا أنني نجحت في الوقوف سدًا منيعًا بينهما. اقترحت على المقدم أن نترك الرجل وشأنه، وأفهمته أنه ما زالت أمامنا فرصة أخرى في بداية السنة لنحاول معه، لعله يغير رأيه. انصرفنا دون أن نسجل الطفل.

منحة التكوين الهزيلة التي كانت تصرف لنا كنت أبعث لوالدتي منها ثلاثمائة درهم، وأحتفظ بمائتين وخمسين درهمًا، ولم تكن تكفي لاحتياجاتي الخاصة، وكان علي أن أتكيف مع الوضع، وأن أقتصد مرغمًا، لأتمكن من اقتناء بعض الملابس، ومستلزمات التكوين.

في ظل هذه الظروف المملة سيومض بين سحب الرتابة وميض بهجة سيخفف عني ما كنت أشعر به من إحباط بين جدران مركز تكوين المعلمين. في أحد مساءات شهر نونبر (نوفمبر) سأتعرف فجأة على فتاة رائعة الجمال تقطن بشقة في عمارة تتواجد بالقرب من المركز. علاقتي العاطفية بها نقلتني من عالم الظلام إلى عالم الضياء. حدث ذلك حين طلب مني معلم المستوى الثالث الذي كنت أتدرب في قسمه برفقة بعض الزملاء أن أهيئ درسًا في مادة القراءة.

كنت في حاجة إلى المرجع، وأثناء الحديث حول الدروس التي سنقدمها في الغد أخبرني زميل لي أن لديه ذلك المرجع، ولا داعي للذهاب إلى المكتبة كي أستعيره، شكرته ولم أذهب لاستعارته. في المساء ذهبت إليه، وطلبت منه المرجع لأعد الجذاذة (تحضير الدرس)، بحث عنه ولم يجده، حاول أن يتذكر أين تركه أو لمن أعاره، ولكن دون جدوى.

أسقط في يدي واحترت كيف سأتصرف، فجأة تذكرت تلميذًا كان يقطن في شقة من شقق تلك العمارة. تذكرت هذا التلميذ، واسمه كريم، لأنه كان تلميذًا نجيبًا، وكثيرًا ما كنت أراه يلعب في الساحة أمام العمارة.

لم أفكر مرتين، قصدت العمارة لآتي بمرجع القراءة، وما إن تجاوزت عتبة الباب الخارجي للبناية حتى وجدت فتاة في مقتبل العمر، أدهشني جمالها، واقفة أمام صنبور تملأ سطلين بالماء. وقفت كالأخرس أنظر إليها وقد تعطلت لدي لغة الكلام على حد قول الشاعر. انتبهت الفتاة إليَّ. تأملتني بابتسامة كضياء يوم جميل. يبدو أنها شعرت بتأثير جمالها عليَّ. تمنيت لو أن الزمن توقف، لتظل تلك الابتسامة الفاتنة إلى الأبد مرسومة على ثغرها الرائع.

أعادتني إلى مسرح الواقع حين سألتني:

_ شنو بغيتي (ماذا تريد؟)

أجبت معتذرًا كأنني ضبطت بجرم مشهود:

_ عفوًا، أريد تلميذًا أظن أنه يسكن في العمارة، اسمه كريم، هل تعرفينه؟

ابتسمت وقالت:

_ نعم، إنه قريبي.

وبغباء، ولأول مرة أشكر نفسي عليه، سألتها:

_ هل أنت أخته؟

هذه الطلقة الغبية، ومن الغباء ما يحقق ما لا يحققه الذكاء، أصابت الهدف، وحققت أكلها. أشرقت عينا الفتاة، وابتسمت ابتسامة أقرب إلى الضحك، وقالت:

_ لا أنا خالته.

أسعد الفتاة أنني جعلت علاقة القرابة بينها وبين كريم علاقة أخوة، هذا يعني في تقديرها أن الآخرين أي الذكور _ وأنا واحد منهم_ يرونها صبية صغيرة، يمكن أن تكون في عمر أخت كريم وليس خالته.

ليلتها كتبت بيتًا شعريًا، من وحي افتتاني بخالة كريم، بيت يتيم لا غير. بقي في الذاكرة حتى الآن.

_ ويح كريم وويح جمال الخالة .. سلبت فؤادي وأردتني بالابتسامة.

طلبت منها أن تنادي عليه، أجابت بصوتها العذب:

ـ مرحبًا.

أغلقت الصنبور. صعدت درجات السلم الرخامية بتؤدة كأنها تتعمد أن تعرض أمامي مفاتن قوامها الجميل. لم تدرِ أن ما رأيت منها واقفة قد أجهز عليّ، وصرت مفتونًا بها.

عادت بعد دقائق معدودة برفقة ابن أختها. سلم عليّ مبتسمًا. اعتذرت له على الازعاج، ولو كان بإمكاني لشكرته من القلب، لأنه لولاه لما كتب لي أن أتعرف على خالته الرائعة. طلبت منه مرجع القراءة، فقال:

ـ حاضر أستاذ.

عاد من حيث أتى، وبقيت أنا وفاتنتي الحسناء رأسًا لرأس. سألتها عن اسمها، فاجأتني حين أجابت:

ـ اسمي عزيزة.

وبدورها سألتني عن اسمي، أسعدني أنها سألت. القاعدة في العشق والغرام أن الفتاة إذا لم تسألك في أول لقاء عن اسمك فدعها، لأنها غير مهتمة بك.

ـ اسمي عزيز، أجبت.

بدت الدهشة في عينيها الجميلتين، ابتسمت برضا، وقالت:

ـ يالها من صدفة.

أجبت:

_ نعم، صدفة عجيبة.

فـي هـذه اللحظة عاد كريم بكتـاب القراءة، قدمه لي، شـكرته، تمنيت للفتاة ليلة سعيدة، ابتسمت وأجابت:

_ ليلة سعيدة سي عزيز.

وكأنني لأول مرة أسـمع اسـمي. أيقنت أن الذين نطقوا باسمي منـذ ولدت إلـى تلك اللحظة كانـوا يلحنون فيه. ولـم يصل به أي منهم إلى مسـتوى العذوبة والرقة التي شـعرت بها وأنا أسـمعه من تلك الفتاة الجميلة.

بقيـت واقفًـا كالأبلـه، لعلي كنت فـي روعة اللحظة وسـموها أنتظـر أن تـردد اسـمي مرة أخـرى، ليمتد مـدى الاسـتماع. وكأن الفتـاة أدركت ما يجول بين تلافيف دماغي، فابتسـمت، بل كادت تضحـك، لكنهـا تمكنت مـن السـيطرة علـى نفسـها، انتبهت إلى نفسي، فقلت قول مسافر مرغم على الرحيل:

_ إلى اللقاء.

_ إلى اللقاء.

عـدت إلى محل إقامتي شـخصًا آخر. كنت قبـل أن ألتقي بهذه الفتاة خاوي الفؤاد من حب الأنثى. وها أنا ودون مقدمات، ودون أن أكون مستعدًا لذلك، أهيم بخالة كريم. صورتها تلك الليلة وفي

الليالي التي ستليها أبت أن تفارق الفكر والوجدان. انطبعت بقوة في دماغي وشغاف قلبي، فحرمتني من التفكير في أي شيء آخر غيرها. سألني رفيقاي اللذان كانا يقطنان معي في نفس الغرفة.

_ ما بك؟

أجبت: لا شيء. لم أظن أن حالة العشق فضحتني إلى هذا الحد. اتجهت إلى سريري، جلست وبقيت ساهمًا لا أقوى على الكلام.

لا أدري كيف أعددت جذاذة القراءة، ولا ما الذي ضمنتها من مراحل وأسئلة. حاولت بعدما أنهيت كتابتها النوم، لكن النوم أبى أن يزور جفوني، بقيت أعيد شريط تلك المشاهد الجميلة، التي عشتها مع عزيزة العزيزة، إلى وقت متأخر من الليل. متى غرقت في يم الوسن؟ الله أعلم.

نمت على حدث جميل، واستيقظت على أمل. تساءلت: هل يمكن للقدر أن يكرمني بأن أحظى بقلب عزيزة؟ انبجس صوت نَكَدي يلعلع في دماغي قائلا: "لا تتسرع يا فتى، الفتاة جميلة، وقد تكون مخطوبة". احتمال منطقي، لكنني رفضته. تذكرت نظراتها وابتسامتها وحتى مشيتها، اختفى الخطاب السلبي داخلي، ليحل محله شعاع أمل. قلت مخاطبًا نفسي: "ما عليك سوى العودة لرؤيتها مرة أخرى، لتفصل بين الشك واليقين". وذاك ما قررت أن أفعله.

بعد أن أنهينا حصة الرياضيات، والتي دامت ساعتين، غادرت مع زملائي إلى المدرسة التطبيقية، التي توجد قرب المركز. أول ما قمت به وأنا أتجاوز عتبة باب القسم هو البحث بعيني عن كريم. كان هناك بين التلاميذ. لوهلة تخيلت عزيزة هي من تجلس بجمالها الأخاذ مكان ابن أختها. كان وجود الطفل بمثابة عزاء للقلب المتلهف لرؤية الخالة.

جلسنا في الطاولات خلف التلاميذ. قدم طالب معلم درسه، ثم جاء دوري. قدمته وكأن ليس في القسم سوى التلميذ كريم. اختفى الباقي في ضياء صور مساء أمس الجميلة. بعد التمهيد والقراءة النموذجية، طلبت منه القراءة. أردت أن أسمع صوته. أو بالأحرى أردت أسمع صوتها في صوته، كان شيء منها في كريم. كان وسيمًا، وحين يبتسم يذكرني بابتسامة خالته الجميلة. خفق القلب بقوة، وراح كقارب صغير يتأرجح فوق أثباج يم اليأس والأمل.

الحصة المسائية كانت أطول حصة عشتها في المركز. انتظرت يومها الغروب بفارغ الصبر. ما إن غابت الشمس، وأسدل الليل سدوله على المدينة العتيقة، حتى قصدت العمارة. وجدتها واقفة على عتبة بابها. اهتز قلبي في صدري فرحًا، كانت علامة إيجابية لصالحي. حدست أنها كانت تنتظرني.

اتجهت إليها، ألقيت التحية، فقالت مبتسمة:

_ أهلًا سي عزيز. هل جئت تريد مرجعًا آخر؟

ضحكـت. زاد إعجابـي بها. لـم تكن جميلة فحسـب بل ذكية، وتملك روح الدعابة أيضًا. أجبت:

_ لا، هذه المرة جئت صراحة لأراكِ.

قالت وهي تتصنع الدهشة:

_ لتراني؟ لماذا؟

_ لأنني منذ أن رأيتكِ وأنا لا أرى ولا أفكر إلا فيكِ.

ضحكت، وقالت:

_ مسكين، إلى هذا الحد أعجبت بي؟

_ وأكثر صدقيني.

قالت هذه المرة بصراحة:

_ لقـد حدسـت إعجابـك بـي، وكنت أعـرف أنك سـتمر بنا هذا المسـاء.

هذا الاعتراف أسعدني بشكل لا يوصف. أزاح عني هم الخوف من أن تكون عزيزة مخطوبة، أو على علاقة بشخص آخر.

ستنشـأ بيننـا علاقـة رومانسـية جميلة بحـق، وكنا نلتقـي كلما سـمحت لهـا الظروف بذلـك. غالبًا مـا كانت تعطينـي موعدًا بعد خروجها من الحمام الشـعبي، حين ألتقي بها أسـألها عن الحمام، فتجيبني بجرأة وهي تضحك ضحكتها الجميلة:

_ الزُّبُوط. (أي العُرْي).

أشاركها الضحك، وأشعر بالامتنان للقدر الذي وضع هذه الفتاة الرائعة في طريقي. سأتعرف عليها مع مرور الأيام أكثر. كان والدها رجلًا ثريًا يقيم في مدينة أكنول. رجل شريف كريم لا يهمه سوى أن يكون المتقدم للزواج من بناته كفؤًا لهن ويقدر المسؤولية.

في لقاءاتنا التي دامت طوال الموسم الدراسي تقريبًا، كانت كثيرًا ما تمازحني قائلة وهي تضحك ببراءة طفل:

_ هل تعرف كيف تلقبكم أختي؟

أبتسم، وأسألها:

_ كيف؟

تضع أناملها على ثغرها الجميل، وتقول ضاحكة:

_ الدجاج البويض.

كنت على علم بهذا اللقب، فهو يحيل على الوزرات البيض التي كان الطلبة المعلمون يرتدونها ومشهورين بها.

أقول لها ضاحكًا:

_ فاش ترجعي للدار، قولي لأختك كيسلم عليك واحد الديك أبيض.

نضحك، وضحكها كان حقًا يسعدني.

قبل نهاية الموسم الدراسي بشهرين تقدم لها خطيب، وافق والدها، كانت ظروفي خاصة المادية لا تسمح بأن أتقدم لها،

حاولت إقناعها بالرفض والتأجيل إلى ما بعد تخرجي، قالت بحزن:

_ أنت لا تعرف ريافة (الريف المغربي)، خاصة والدي، حين يمنح كلمته لا يتراجع فيها أبدًا.

انتهت قصتنا كما تنتهي قصص الروايات أو الأفلام المصرية الرومانسية نهاية غير سعيدة. ستتزوج هذه الفتاة من شخص حقًا لا يستحقها. لا يستحقها لأنها حقًا كانت إنسانة رائعة خَلقًا وخُلقًا. والوغد الذي تزوجها تخلى عنها بعد أن أنجبت منه ولدًا وبنتًا، ورحل إلى القطر الليبي ليبقى هناك سنوات طويلة ويتركها، كما يقول المثل المغربي "ما هي مطلقة وما هي عروس". (لا هي مطلقة ولا هي زوجة).

هذه المعلومات سأستقيها من تلميذي النجيب كريم، سألتقي به بعد سنوات طويلة في مدينة الرباط، حيث يعمل كمدير لوكالة بنكية. تأسفت مرتين: الأولى لأنني وبسبب المسؤولية التي كانت تنتظرني لم أستطع الزواج منها. وتأسفت ثانية لأنها حقًا كانت تستحق الأفضل. لم يمكِّنها جمالها ولطفها من تحقيق زواج ناجح. وحين سمعت لأول مرة في حياتي المثل المغربي القائل "الله يعطينا زهر الخيبات" اتفقت معه على طول الخط. بالفعل كثيرات هن الفتيات الجميلات، اللائي منحهن القدر الحسن، وسلبهن الحظ السعيد.

التعيين الأول

انتهت السنة الدراسية دون مشاكل، باستثناء طرد طالب التحق بمركز تكوين المعلمين، وتبين للوزارة بعد مرور شهرين على قبوله أن سنه تجاوزت الثلاثين ببضع شهور، والوزارة لا تسمح لطالب تجاوز سنه الثلاثين ولو بيوم واحد أن يصبح موظفًا في قطاع التعليم.

كان الطالب ينحدر من مدينة الحسيمة، وكان لديه بحكم العطالة التي عاشها رغبة جامحة في أن يصير معلمًا. كان يسأل ويستفهم، ويبذل كل ما في وسعه لاستيعاب الدروس. وحين علم الأستاذ الذي كان يدرسنا الرياضيات _ وهو أستاذ مصري_ بفصل زميلنا، تأسف وقال:

_ كان مجتهد قوي، ما يستحقش الفصل.

من يدري؟ قد تكون رب ضارة نافعة، وقد يكون صاحبنا اليوم قد هاجر إلى أوروبا كما يفعل الكثير من أهل الريف، أو مارس مهنة التجارة وحقق بفضلها الثراء، وجنب نفسه الوقوع في فخ الأجرة، التي يظل الموظف سجينًا في زنزانتها مدى العمر.

في آخر السنة أجريت لنا الاختبارات الكتابية والشفهية، ليتم في شهر يونيو الإعلان عن نتائج امتحان التخرج. نجح الجميع،

وعـدت إلـى قريتـي، لأقضـي فيها أيـام صيف قائـظ. أمـا العطلة الصيفيـة، علـى حقهـا وطريقها كما يقـول المغاربـة، فهي ترف لا يتأتى لأبناء المزاليط.

حل شهر سبتمبر بسرعة، وسيظل هذا الشهر بخلاف كل أشهر السنة يعني لي على الدوام شهر السفر في الزمن. ما إن ألتحق بمقر عملي حتى أشـعر وكأنني انتقلت زمنيًا، كأنني في فيلم من الخيال العلمي، إلى زمن آخر. زمن إذا كنت رفيقًا به سـأنعته بزمن موسـى بـن نصيـر. التدريس في قرى مجهولة، تحتاج إلى سـنوات ضوئية قبل أن تلتحق بآخر مركبة من مركبات قطار التحضر.

كان الموسـم الدراسـي فـي الثمانينيـات يبـدأ فعليًـا يـوم 16 سـبتمبر. قبلها بيوم واحد يلتحق الأستاذ بإدارة المؤسسة التعليمية التي قدر له أن يعمل لتوقيع محضر الدخول. يعقد المدير اجتماعًا مع هيئة التدريس، يرحب بالجميع، يتكلم في كل شيء ولا شيء، يتم توزيع المعلمين الجدد على الوحدات المدرسـية، أو ما يطلق عليه المعلمون اسم "الفرعيات" التي بها خصاص. ينفض الجمع، ويلتحق كل واحد من هيئة التدريس بمقر عمله.

المجموعـة المدرسـية التـي كانـت مـن نصيبـي اسـمها م ـ م العنصر. لم يسبق لي أن سمعت عنها. أخبرني بعض رجال التعليم مـن أبناء بلدتـي أنها تتواجد بالقـرب من قرية مغـراوة. هذه القرية كانـت أشـهر من نار علـى علم في الإقليم. وبسـبب شـهرتها كان

اسمها يطلق على منطقة جبلية بأكملها.

للوصول إلى مدشر العنصر حيث تتواجد المؤسسة التعليمية مقر عملي الجديد كان عليّ أن أسافر إلى مدينة تازة، ومنها إلى مجموعة مدارس العنصر. نهضت ذلك اليوم باكرًا، وتناولت إفطارًا كانت الوالدة قد أعدته، وغادرت البيت تحت وابل من دعواتها، كأنني ذاهب للحرب في غزة.

بعد ساعة على متن سيارة أجرة وصلت إلى مدينة تازة. المعلومات التي كانت لدي بخصوص كيفية بلوغ إدارة المدرسة هي التوجه إلى تازة العليا. هناك وغير بعيد عن مركز تكوين المعلمين وفي حي اسمه حي "الكوشة" يتواجد مقهى لا أدري لماذا أطلق عليها مقهى "الفأر". غير بعيد عنه تتواجد محطة سيارات الأجرة التي تنقل المسافرين إلى قرية مغراوة. أغلب السيارات كانت قديمة، ومن نوع لاندروفر، جعلت من الأحمر لونها المميز.

وجدت في المحطة خمسة معلمين، كانوا يتحدثون ويضحكون لتزجية الوقت قبل أن يقرر سائق السيارة أن عدد الركاب معقول ليغادر. والعدد المعقول كما سأعرف يجب أن لا يقل عن عشرة أشخاص. السائق لا يهمه أن يعاني الركاب وهم يُحشَرون في سيارته مثل سمك السردين في العلبة المشهورة. ما يهمه هو أن يكون دخل كل رحلة مربحًا. أخطار الاكتظاظ وإمكانية أن يقع حادث ما ويصبح بعض الركاب خارج تغطية التأمين، هذا إذا بقوا

على قيد الحياة، أمور لا تشغل بال السائق و لا يعبأ بها، كما لا يعبأ بالمراقبة الطرقية أيضا.

ما إن رآني من سيكونون زملائي حتى علموا أنني معلم جديد التحق بمجموعتهم. الرائحة الوظيفية يشمها ويتعرف عليها بسرعة من ينتمون إلى نفس المهنة. قدمت لهم نفسي، واستقبلوني بالترحاب، ثم عادوا لما كانوا فيه من حديث حول مستجدات الدخول المدرسي. لم أكن المدرس الوحيد الذي تم تعيينه لأول مرة في هذه المجموعة، كان هناك زميلان آخران معي. أخبرنا المدرسون عن أخطر فرعيتين في المجموعة، وحين أقول أخطر أعني أبعدهما عن المدرسة المركزية بعشرات الكيلو مترات، والوصول إليها مهمة مستحيلة، كمهام توم كروز Tom Cruiseفي سلسلة "مهمة مستحيلة". الفرعية الأولى اسمها "سيدي عيسى"، والثانية مجاورة لها، واسمها "أسرير". تقعان معًا على ضفة نهر ملوية، الذي يخترق إقليم جرسيف حاليًا.

المعلم المسكين الذي قدر له أن يعمل في أحد هذين المدشرين أمامه خياران لا ثالث لهما: الأول أن يقطع عشرات الكلو مترات سيرًا على الأقدام ولا يستطيع ذلك في التعيين الأول، لأنه مجبر على حمل "قشّه" كما يقال إلى مقر عمله. أما الخيار الثاني فهو انتظار شاحنة واحدة ووحيدة تنقل التجار والبضائع إلى سوق أسرير من مدينة تازة على الساعة الثانية صباحًا من كل يوم سبت.

تغادر باكرًا كي تتمكن من الوصول إلى السوق قبل مطلع الفجر.

أقلقني حقًا ما سمعت، وتمنيت أن يجنبني الحظ التعيين في هذين المدشرين. كان المعلمون الذين سبقونا في المهنة، أصدقاء سائقي سيارات الأجرة، بحكم طول العشرة الطرقية. بعد أن أصبح عدد الركاب كافيًا قال أحد الزملاء مخاطبًا السائق الكهل الذي كان يلف رأسه بعمامة معصفرة اللون، ويرتدي جلبابًا من نوع الجلابيب التي يرتديها الجنود:

ـ باراكا السي "شلّاط"، غدي نتأخروا على الاجتماع.

رد السائق:

ـ نزيدو بلاصة ولا جوج، ونتوكلوا على الله.

ضحك المعلمون وقالوا:

ـ الله يهديك السي شلّاط راه لبلايص كافيين.

أجاب السائق:

ـ راكوم عارفين، الوقت عيَّانة والله.

بعد زهاء ساعة إضافية انطلقت السيارة أخيرًا. لن أنسى هذه الرحلة العجيبة، عانيت فيها الأمرَّين. لم أقوَ على مواجهة الاكتظاظ داخل السيارة، ولا المنعرجات التي أبت أن تنتهي.

بعد نصف ساعة شعرت برغبة حارقة في القيء. طلبت من السائق أن يتوقف. ضحك هذا الأخير وقال مخاطبًا زملائي:

_ واقيلا هاد السلعة جديدة.

ضحك جميع من كان في السيارة، معلمون وركاب عاديون، وقال المعلم الذي كان يجلس إلى جوار السائق:

_ نعم، إنه زميلنا، وهذا تعيينه الأول، ويبدو أنه لم يسبق له أن سافر في مثل هذه المنعرجات.

قال السائق مبتسمًا:

_ سيتعود، كلكم مررتم بهذه المرحلة، وها أنتم الآن لا تهابون المنعرجات.

لم آبه لضحك زملائي، ولا لكلام السائق الذي كان يسخر من الجميع، ما كان يهمني هو أن أفرغ ما في معدتي لعلي أستريح. توقفت السيارة فنزلت بسرعة، وعلى حافة الطريق جثوت ورحت أخرج ما تختزنه معدتي. شعرت بالعرق يتصبب من جبهتي، وأحشائي تتقلص كأنني أريد أن أسلم الروح.

سمعت السائق يصيح. قائلا:

_ هيا يا أستاذ.

عدت إلى رفاقي. ركبت وأنا أشعر أني تركت أمعائي على حافة المنحدر. انطلقت السيارة. لم أشعر بتحسن تام. ولأراوغ مَغَصِي حتى لا أطلب من السائق التوقف مرة أخرى أغمضت عيني وحاولت النوم. يبدو أنني بالفعل غفوت. انتبهت على صوت

الزميل الذي كان بجانبي يهمس لي:

_ وصلنا.

نزلنا من السيارة. تفاجأت، فلم تكن هناك مدرسة، وكنا نقف على قارعة الطريق، على علو شاهق، أمامنا سفح لا ينتهي، ومدى منحدر سحيق ينتهي بغابة. سألت أحد المعلمين:

_ أين المدرسة؟

أجاب وهو يشير إلى بناية كبقعة بيضاء تتواجد في أسفل السفح على منبسط معشوشب ينتهي عند تخوم الغابة:

_ تلك هي مركزية مجموعة مدارس العنصر.

تطلب منا الوصول إلى المدرسة زهاء عشرين دقيقة. كانت المدرسة تتألف من قسمين من النوع المفكك، وإدارة مع سكن خاص بالسيد المدير.

لم يكن بجوار المدرسة أي منزل، لمحت بعض المنازل هنا وهناك على مسافة بعيدة. ما كان وما يزال يميز نمط السكن لدى قبائل بني وراين هو التشتت. كل رب أسرة يبني بيتًا لأسرته على الأرض التي ورثها عن أبيه.

وجدنا بعض المعلمين الذين سبقونا يقفون إلى جوار الأقسام. سلمنا على الجميع، وبقينا ننتظر أن يظهر المدير ليبدأ الاجتماع. بعد وقت غير قصير سأتعرف على أول رئيس لي في مهنة التدريس.

كان _ رحمه الله_ رجلًا طويل القامة ممتلئ الجسم. وكان يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا بني اللون. وقف على عتبة باب الإدارة، ودون أن يلقي التحية أو يبادر بالسلام استدعى أحد المعلمين. دخلا معًا إلى مقر الإدارة. غاب المدرس لما يقرب من ربع ساعة ثم عاد. سأله بعض المعلمين عن سبب تأخر السيد المدير. ضحك هذا الأخير وقال:

_ راه غرق فالوراق.

سأكتشف أن تأخر المسؤولين عن الاجتماعات قاسم مشترك بينهم. هذا الأسلوب لدى هذا المدير وبعض المديرين الآخرين، بمن فيهم بعض المديرين الإقليميين والجهويين، هو ربما نوع من الرغبة في فرض الذات التي لا ترتوي من حب السلطة والتظاهر بها، حين تسند لها مهام تسير الشأن التعليمي إقليميًا وجهويًا. يشعر المسؤول وهو يتحمل المسؤولية أنه أصبح ديكتاتورًا صغيرًا عليه أن يستمتع بلذة السلطة على مهل.

أخيرًا خرج المدير يحمل حقيبة كبيرة، أصبح متكامل الهندام بعد أن ارتدى سترته البنية، وربطة عنق لا تناسب لون البذلة. كنا قد دخلنا إلى القسم بعد أن أعيانا الوقوف. دخل سيادته، واتجه إلى المكتب الخاص بالمعلم، وضع ما كان يحمل في يده من ملفات، ثم جلس. نظر إلينا كأنه يعيد اكتشاف الأطر الوافدة التي ستعمل معه لعدة مواسم. بعد أن اطمأن أن الكل حاضر افتتح

اللقاء بالصلاة والسلام على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

رحب بالحاضرين، القدماء والوافدين الجدد، وتمنى للكل عودة ميمونة لبدء موسم دراسي جديد. كنا ثلاثة معلمين من مدينة تاهلة. من بينهم معلم اسمه أحمد الغموز، سيلفت انتباهي هذا المدرس سواء خلال عمله معي في مجموعة مدارس العنصر، أو بعد انتقاله إلى مجموعة مدرسية قريبة جدًا من بلدتنا، بجديته واستقامته.

لم يحقق الأستاذ أحمد الغموز ما حققه العديد من الأساتذة في مجال الترقي، ولم ينل ما يستحق من الاعتراف المعنوي أيضًا، شأنه في ذلك شأن كل من يعمل في مهنة التدريس. سيغادر هذا الصديق بعد عقود مهنة التدريس، ولما يبرح زنزانة السلم العاشر. لكن الرجل وفي مفارقة لافتة ظل على رغم دخله المتواضع ميسور الحال. تذكرته وأنا أخط أسطر هذه المذكرات، وكان علي أن أنوه بفضله، كالتفاتة بسيطة، وتحية مني إليه، وإلى الجندي المجهول، ذلك الأستاذ (ة) الذي قدم بنكران ذات، دون أن ينتظر من المسؤولين جزاءً ولا شكورًا، الأفضل لأبناء هذا الوطن.

معلم آخر من طينة سي أحمد سيلتحق بي في مجموعة مدارس العنصر سنة 1986. سيعين في نفس الفرعية التي كنت أعمل فيها. هذا المعلم اسمه لحسن حباط. حصل على الإجازة في الأدب العربي، والتحق مع أول فوج حصل على هذه الشهادة بسلك التعليم الابتدائي.

هـذا الرجـل الـذي ستسـتمر علاقتـي وصداقتي به حتـى الآن كان ينتمي إلى أسـرة متواضعة، تقطن بأحد المداشـر في ضواحي قرية اسـمها "الزرارة". طفولته كانت ملحمـة من المعاناة. حكى لـي بعضًا منهـا، وكانت بالفعـل قصصًا مؤلمـة، وبعضها مضحك فـي نفس الوقت. من بيـن تلك القصص التـي روى لي في إحدى الليالـي، ونحن فـي الفرعية التي جمعتنا، نسـتمد النور من فانوس صغيـر، أنه حين كان تلميـذًا في الابتدائـي كان عليه أن ينهض كل صبـاح قبـل أن يظهـر الخيـط الأبيض من الأسـود، ليقطع مسـافة طويلة نحو المدرسة.

للاسـتيقاظ باكـرًا كان يعتمد على منبه السـاعة. يغسـل وجهه، يحمـل محفظتـه، ثـم يغـادر. ذات صباح اسـتيقظ كالمعتـاد على صـوت المنبـه، غـادر البيـت، وكان الليل مـا يزال يرخي وشـاحه القاتم على المدشـر والأمداء. سـار لبعض الوقـت، وهو ينتظر أن تلوح أولى أنوار الفجر كما تعود، لكن دون جدوى.

كان اليـوم يـوم سـوق، وكان من المفـروض أن يصادف بعض سـكان المدشر المتوجهين نحو السوق باكرًا، أو على الأقل يسمع أصواتهم وهم يتحدثون، يسـتأنس بعضهم ببعض في عتمة ما قبل الفجر. اسـتغرب صديقـي للصمت الذي كان يلـف الأمداء، وهو يسـير ليـلًا وحيـدًا دون أن يصـادف أي فـرد من سـكان المدشـر. سيكتشـف بعد وقـت غير قصير أنه غادر بيته فـي وقت مبكر جدًا،

وأن أحـد إخوته ربمـا عبث بالمنبـه، وأيقظه قبل الوقـت المعتاد. حين انتهى إلى هذه القناعة أوى إلى جذع شجرة، وواصل النوم.

تابع سي لحسن حكيه قائلًا:

_ لا أدري كم مر من الوقت وأنا نائم. فجأة انتبهت على أصوت "السواقة" يتحدثون فيما بينهم قاصدين السوق. نهضت وواصلت السير إلى المدرسة.

قصص السـيد حبـاط، التي تخلـد لتجربة ابن العالـم القروي، وهـو يعانـي ويكابد ليواصل دراسـته لا حصر لها. اليوم تحسـنت الظـروف، وفكـت العزلـة، وزرت مؤخـرًا الوحدة الدراسـية التي كان الأسـتاذ لحسن حباط تلميذًا فيها. ابتسـمت وأنا أتذكر رحلته الليلية، التي قطعها في تلك الفيافي ليصل إليها، والتي كتب لها أن أدونها في هذه المذكرات.

أتوقف عند هذا الاستطراد، لأعود إلى قاعة الاجتماع مع السيد المديـر، الذي ذكرنـا بمقولة عجيبـة أثناء الكلمة التـي ألقاها على مسـامعنا. جاء على لسـانه _ رحمه الله_ قولـه: "لي تخدمو طيعو ولي ترهنو بيعوا"، كأن المعلمين ليسـوا موظفين، بل مجرد أُجراء في ورشة بناء هو صاحبها، وهو من يمنحهم أجرتهم الشهرية، وله صلاحية إبقاء وطرد من يريد، دون حسيب ولا رقيب.

انتهى اللقاء مع السيد المدير العجيب بتوقيع محضر الالتحاق.

بالنسبة للمعلمين الجدد حدد لكل واحد منهم الوحدة المدرسية التي سيعمل فيها، والقسم أو بالأحرى الأقسام التي سيدرسها، لأن الأقسام المشتركة التي لم نتلقَّ فيها أي تكوين في مركز تكوين المعلمين هي الظاهرة والمعضلة التي سأتعامل معها منذ أول يوم لي في مجال التدريس، إلى أن غادرت القسم لألتحق بمركز تكوين المفتشين.

لم أعين من حسن الحظ في الوحدتين اللتين خشيت أن أعين فيهما، أقصد وحدتي "سيدي عيسى" و "أسرير". عينت في فرعية اسمها "زَرْيان"، لا تبعد عن المركز سوى بنصف ساعة مشيًا على الأقدام، و حجرتها الدراسية اليتيمة تقع على جانب الطريق الثانوية التي تربط مغراوة بمدينة تازة.

بعد أن وقعت المحضر وتعرفت على مقر عملي، كان علي أن أعود إلى قريتي لآتي بأمتعتي وكل ما سأحتاجه للاستقرار في الوحدة المدرسية التي عينت فيها. بعد انتهاء الاجتماع انتظرت برفقة المعلمين على قارعة الطريق الأسفلتي لوقت طويل، قبل أن تظهر سيارة سي "سلاخ" الذي كان الأساتذة قد اتفقوا معه على أن يعيدهم إلى مدينة تازة. لم تكن رحلة العودة أقل عذابًا من سابقتها. شعرت مرة أخرى بدوار يعصف بمخي وينزل إلى معدتي، بسبب مرجحة المنعرجات الخطيرة، مما اضطر السائق _ بطلب مني_ الوقوف مرة أخرى لأفرغ معدتي الخاوية أصلًا.

وصلت إلى البيت خائر القوى. سألتني والدتي عن مقر عملي، أردت أن أخبرها أنني عينت في مجال جغرافي ينتمي زمنيًا إلى عهد معاوية وعقبة بن نافع، لكن والدتي لا تعرف معاوية بن أبي سفيان ولا عقبة. اقتصرت على وصف صعوبة المنطقة التي سأعمل فيها، وما عانيته في الطريق للوصول إلى مقر عملي. حاولت الوالدة _ رحمها الله_ أن تخفف عني، مؤكدة أنني مع الوقت سأتعود على المنطقة وأجوائها. أجمل ما في المجتمع أن مؤسساته من الأسرة حتى المسجد، مرورًا بمختلف المؤسسات الأخرى، كلها تجتهد في أن تجعلك تتعود على العذاب والبؤس، وتتأقلم معهما.

هيأت تلك الليلة بمساعدة الوالدة أهم ما سأحتاجه في محل إقامتي الجديد، ثم نمت. نهضت في الصباح الباكر. وجدت أمي قد أعدت وجبة إفطار متميزة، على شرف أول موظف في العائلة، الذي هو أنا. وأنا أتناول الوجبة كانت تلك المنعرجات الجهنمية تتراقص على شاشة دماغي، وشعرت بالرغبة في القيء حتى قبل أن أصل إليها.

ودعت والدتي وداع من سيذهب إلى حرب ضروس قد لا يعود منها إلا جثة هامدة. اتجهت إلى محطة سيارات الأجرة. أبى السائق أن يحمل الكيس الكبير الذي كان يحتوي على فراشي وأدوات المطبخ. نعم، كل شيء جمعته في كيس واحد، ومن حق

القارئ أن يبتسم، وأن يضحك أيضًا. إنها مهنة المعلم التي أوصى أحمد شوقي بالوقوف له إجلالًا واحترامًا. في حالتي وحالة كثيرين مثلي كان عليه أن يوصي بالجلوس بكاءً ورثاءً لحالهم، وكان عليه أيضًا أن يقول في حالتي، وفي تلك اللحظة بالتحديد:

_ اجلس للمعلم واندب حظه ندبًا ... كادت مهنة المعلم أن تكون سبة.

بقيت أنتظر، وبينما أنا أفكر كيف أحل هذه المشكلة، فجأة ظهرت حافلة كانت تنطلق من قرية رباط الخير وتتجه إلى مدينة تازة عبورًا بمدينة تاهلة. اتجهت إليها. دفعت ثمن التذكرة. طلب مني لجريسون عشرة دراهم مقابل الكيس. دفعتها وصعدت إلى الحافلة.

بعد رحلة، كانت أشبه برحلة حافلات المدن، لكثرة ما كانت الحافلة تتوقف على الطريق لحمل الركاب، وصلنا إلى مدينة تازة. أخذتني سيارة أجرة صغيرة أنا وحمولتي إلى محطة السيارات قرب مقهى "الفأر" الشهير. ومرة أخرى وبرفقة نفس السائق، السي "سلاخ"، انطلق بسيارته المكتظة بالركاب نحو مغراوة. في الطريق سألني عن مقر تعييني. أخبرته:

_ فرعية زريان.

_ أنت محظوظ، لقد حصلت على تعيين جيد. قال السائق.

طبعا كان السيد سلاخ وغيره من السائقين، وبحكم تعاملهم

مع المعلمين، ومن كثرة ما سمعوا عن مشاكلهم، على علم بكل خصوصيات المعلمين، ويعرفون حتى رقم المبلغ الذي يتقاضونه. لم أعقب على قوله. أخلدت للنوم، لأنقد نفسي من تسونامي الدوار، الذي إن لم أكن حريصًا فيه فسأضطر لإفراغ ما في معدتي مرة أخرى.

توقفت السيارة بعد أكثر من ساعة. انتبهت على صوت السيد سلاخ يقول:

_ أستاذ، وصلنا إلى زريان.

نزلت، حملت أمتعتي، غادرت السيارة، وبقيت واقفًا على قارعة الطريق، كالتائه في المكان والزمان. نظرت إلى المنحدر فرأيت البناية اليتيمة مقر عملي. قسم من النوع المفكك غريب مثلي في مكان يحتاج إلى كل مقومات الاستقرار الإنساني.

وجدت بعض الأطفال في انتظاري، تأملتهم، حالهم زادني إحباطًا واكتئابًا. ألقيت عليهم التحية فأجابوني بابتسامة فحسب، فتحت باب القسم، وضعت حاجياتي خلف آخر طاولة، وطلبت من التلاميذ الاصطفاف، وأدخلتهم إلى الحجرة.

لأول مرة سألتقي بمن سيكونون أصدقائي حقًا في الربع الخالي الذي عينت فيه. سيلهمني الله إلى فكرة جعل هؤلاء الأطفال الذين كنت أقضي معهم سحابة يومي في تلك القفار

أصدقائي بحق وحقيق. ليس في هذه الفرعية التي لن أعمر فيها طويلًا فحسب، بل طيلة مشواري التعليمي، إلى أن غادرت إلى مركز تكوين المفتشين.

في عمر الزهور كان أولئك الأطفال، وكان الفقر باديًا على ملامحهم. عوامل المناخ القاسي كانت بادية على وجوههم المتغضنة، وأيديهم الخشنة. أضف إلى ذلك سوء التغذية. كل هذه المعطيات كانت تنذر بأن مستقبلهم التعليمي سيكون موسومًا بالفشل.

كنت أصر على التشبث بهم، وإبقائهم في القسم إلى آخر لحظة. تصرفي لم يكن يلقى على الدوام ترحيبًا من قبل الآباء، لسبب معقول، وهو أنهم كانوا يخشون على أبنائهم الذين كانوا يتأخرون في العودة إلى بيوتهم مخاطر الطريق، وخاصة تهديدات الخنزير الذي يتواجد بكثرة في الغابة.

في أول حصة تقويمية للمتعلمين تبين لي أن المستوى الثاني في حاجة إلى دعم مكثف، وانتابني الشك في أنهم مروا حقًا بالمستوى الأول. لم يكن عدد التلاميذ يتجاوز العشرين، ما بين المستوى الأول والثاني. قلة العدد كانت فرصة سانحة بحق لإنقاذهم، وجعلهم يتمكنون من ناصية القراءة والكتابة. قبل أن يغادروا كنت قد أعطيت كل واحد منهم ورقة مدونًا عليها اللوازم المدرسية التي سيحتاجونها.

حل المساء بسرعة، غادر التلاميذ. من سوء الحظ أن القسم لم يكن مجاورًا للمسجد والقبور. لو كان هناك مسجد لاستأنست بالإمام، وربما ببعض المصلين، ما بين صلاة الغسقين. أظن أن سكان المدشر ليس لديهم مسجد، ومن يصلي منهم يصلي في بيته. هكذا حرمت من ترف أن أكون مع الجماعة، وتبادل الحديث مع أي كائن، حتى ولو كان أحمق. كنت في وضع يشبه وضع الممثل الأمريكي "مات ديمون" Matt Damon في الفيلم الذي لعب بطولته، والموسوم بـ "وحيد على مارس". وكان عليّ أن أتأقلم مع الوضع، وأن أخطط لكيفية الحفاظ فيه على توازني العقلي والنفسي.

حين جن الظلام دخلت إلى القسم. أغلقت الباب لأحول حجرة الدرس إلى غرفة نوم. تخيلتها غرفة في فندق مصنف، والتصنيف الذي اخترت لها كان خمسة نجوم تحت الصفر. أشعلت شمعتين كأنني أحتفل بالنتيجة المأساوية التي أجبرت على أن أختم بها مساري الدراسي. تناولت ما تيسر من الطعام: الخبز والسردين وبعض الفواكه، ثم أويت إلى الفراش غير الوثير الذي شكلته من ضم الطاولات بعضها إلى بعض.

من حسن الحظ أنني حملت معي أنيسي وخير جليس على حد قول شاعري المفضل "المتنبي". وعلى ضوء الشمعتين رحت أقرأ "يوميات نائب في الأرياف" للكاتب المصري "توفيق الحكيم".

لـم أتمكن من مقاومة الرغبة في النوم، بسـبب التعب. وضعت الكتاب، وخنقت أنفاس الشمعتين، ثم استسلمت لسلطان الوسن. لا أدري كـم مـر علي مـن الوقت وأنـا نائم. فجأة اسـتيقظت على صوت خنخنة واحتكاك بالباب. لم يسـبق لي أن سمعت مثل تلك الأصـوات الغريبـة. أنصت جيـدًا، أدركت أن الحيـوان الذي جاء يزورني ويؤنسـني في وحدتي، وربما ليرحب بي أيضًا، هو السـيد الخنزير. تبين من خلال كثرة الأصوات أن زواري كانوا قطيعًا.

لا شـك أن رائحـة بعض بقايـا الطعام المعلب التـي ألقيت بها خـارج مقر إقامتي هو ما جلبهـم إليَّ. لن أدعي البطولة، وأزعم أنه لم ينتَبْنـي الخوف. الخنزير البري معروف ببطشـه، خاصة إذا كان مجروحًا بسـبب طلق ناري، أو شـعر بالخوف من الآخر. خشيت وبسـبب تدافع الخنازير وارتطامها بين الفينـة والأخرى بالباب أن يتـم كسـره. إن حدث ذلك، فسـتكون أول وآخر ليلة لـي في مهنة التدريس. سـتزهق روحي هذه الحيوانات المفترسـة، ولن أمارس مهنـة التعليـم طويـلًا، ولن يكتـب لي أن أصـل إلى سـن التقاعد، لتبعث لي وزارة التربية الوطنية قرار الإحالة عليه، تخبرني فيه أنه تم التشطيب علي من لوائح الوظيفة العمومية، كأنني كنت مجرد فضلة زائدة، وأسـمى ما أسـتحقه كغيري من المدرسـين هو التشـطيب.

زحفت بهدوء نحو البـاب، لأتأكد من أنه كان موصدًا بإحكام. نظرت من فجوة، بدت لي تلك الحيوانات وهي تتحرك كأشباح أو

كائنات فضائية جاءت من كوكب آخر. عدت إلى فراشي، جافاني النوم، وأمضيت الساعات التي تفصلني عن الفجر أدعو الله أن يخرج ليلتي بخير كما يقول المغاربة. غادرت الحيوانات قبل مطلع الفجر بقليل. تنفست الصعداء، وحاولت النوم.

هذه الليلة ستذكرني بليلة مماثلة عشتها وأنا في سن السادسة، وبقيت بسببها مستيقظًا من شدة الخوف، إلى أن هلت أنوار الفجر تعلن عن ميلاد يوم جديد.

سنة 1968 أَخَذَنَا والدي معه إلى مقر عمله بضواحي مدينة "بَرْكَمْ"، مدينة صغيرة على الحدود الجزائرية تسمى حاليا بـ "عين بني مطهر".

اكترى لنا بيتًا في المدينة، وبعد شهور قليلة، حصل على سكن وظيفي في الثكنة التي يعما بها، وكانت هذه الثكنة تتواجد في ضواحي المدينة، في منطقة جغرافية شبه صحراوية. ذات ليلة، وكانت من ليالي فصل الصيف، والصيف كان كالرمضاء وقت الهاجرة في تلك المنطقة،

استيقظت فجأة من نومي في الهزيع الأخير من الليل. أيقظتني الحرارة. كنت نائمًا بين إخوتي. أبي وأمي ينامان في الجهة المقابلة لنا. هذا التصرف كان عاديًا وطبيعيًا في زمن الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. لا يأبه الآباء لنوم أبنائهم معهم في نفس الغرفة، ويظنون أن هؤلاء الأطفال لا يسمعون ولا

يفهمون ما يقع حين يقع.

حاولت وبطريقة إشراطية على حد قول "بافلوف" أن أخفف عني شدة الحر. أبعدت الغطاء بشكل تلقائي. رفعت رأسي ونظرت باتجاه أبي وأمي، كأنني أريد أن أطمئن أنهما ما يزالان معنا. كانا غارقين في النوم. لكن ما أثار انتباهي وجعل قلبي يصل إلى حلقي هو ذلك المشهد الذي رأيت، مشهد أغرب من الخيال، مشهد لا يُرَى إلا في أفلام الخيال العلمي. بقيت أتأمل الشيء العجيب الذي كان ماثلًا أمامي بكل وضوح، وفجأة تم الانتباه إلى تجسسي، نظر إلي ذلك الشيء العجيب والرهيب، وضعت رأسي على الوسادة، أعدت الغطاء فوقي. أنساني الخوف والمشهد الجلل شدة الحر، وبقيت مستيقظًا بين إخوتي، إلى أن سمعت أمي تتحدث مع أبي وهي تهم بمغادرة الفراش.

اليوم وقد مر أكثر من خمسين سنة على ما عاينت تلك الليلة، مقتنع كل الاقتناع أن ما رأيت رأيته بالفعل، وما زاغ بصري، ولا كان المشهد مجرد تهيؤات ليس إلا. ولأكون صادقًا مع قرائي، لست سعيدًا وأنا في هذه السن بما رأيت بالصدفة تلك الليلة. ليتني لم أنتبه من نومي، ولا وقعت عيني على تلك المعجزة الربانية. مثل تلك المشاهد لا يراها إلا الصوفيون، والأولياء من أهل الكرامات، التي استحقوها بالمجاهدة والمكابدة، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء، والعاشقة لمفاتن الدنيا الفانية.

أنـا كنـت مجرد طفل، لم يتجاوز الربيع السـادس من عمره. لم أقدم لنفسي أمام خالقي ما يجعله ينزع الحجاب بيني وبين كراماته وعجائبـه التـي لا سـاحل لها. لمـاذا قدر لـي رؤية ذلك المشـهد العجيب الغريب؟ صراحة لا أعرف.

الآن وأنـا أكتب هـذه المذكرات فـي خريف العمر، والمسـافة بدأت تتقلص أكثر ما بيني وبين القبر، أخشى أن يكون ذلك الكشف ليـس في صالحي، بـل ضدي. نعم عزيزي القـارئ، من رأى ليس كمـن لم ير رسـائل الخالق. وقد قرأت فيما بعـد لبعض أولياء الله أنهم كانوا يخشـون الكشـف، ويطلبون من اللـه أن لا يتحقق لهم، خوفًا على عقولهم، وخوفًا من أن يكون الحساب عسيرًا على قدر الرؤية. سيعذرني القارئ على عدم ذكر ما رأيت، لا بخلًا ولكن أنا علـى يقين أنني حتى ولو أخبرته لن يصدق، لذلك سـأجنبه مشـقة محاولـة التصديق، وأجنب نفسـي محاولة الاقناع. أعلـم يقينًا أنه لن يصدق، وربما قال سـاخرًا إن سي عزيز يهذي. ولن ألومه طبعًا على ذلك. سـأصمت، وسـأدعو القارئ إلى نسـيان هذه الحكاية، وأن يتجاوزها كأنه لم يقرأها. تذكرتها فقط في سياق ما عشته تلك الليلة في فرعية زريان، وأنا وحيد في ذلك القسم، والخنازير تحوم حول القسـم، كأنها كائنات جاءت من كوكب بعيد، وكان بإمكانها أن تؤذيني، لو أنها كسرت باب حجرة القسم.

فـي الصبـاح كنت قـد انتهيـت إلى قرار حاسـم، وهـو أنني لن

أبقى في هذه الفرعية ولو اضطررت للاستقالة. عدت إلى قرية تاهلة، أخبرت والدتي أنني سأترك التعليم، فوجئت المسكينة، بل صُدِمَت، وهي التي كانت تعقد أمالًا كبيرة على وظيفتي. حاولت اقناعي بكل السبل، لكنني رفضت الإصغاء إليها.

حين جاء والدي وعلم بالأمر غضب وطلب مني العودة إلى العمل أو ترك بيته إلى الأبد. وجدت نفسي بين أمرين أحلاهما مر. وأمام توسل الوالدة رحمها الله، وتسلط الوالد، أرغمت على تغيير رأيي والعودة إلى مدشر زريان .

حين وصلت إلى الفرعية مقر عملي، وجدت معلمًا قد حل محلي. سألته عن سبب تواجده في مكاني، أخبرني بأن المدير جاء برفقة المفتشين لتتبع سير الدخول المدرسي في المجموعة، وحين وجدوني غائبًا دون مبرر طلبوا من المدير أن يعين معلمًا آخر مكاني.

اتجهت إلى مقر الإدارة، استقبلني المدير بوجه مكفهر. قدم لي استفسارًا، وطلب مني تبرير غيابي عن العمل. لم يكن لدي مبرر مقنع. ختم لقاءنا قائلًا إنه عينني في فرعية أخرى اسمها "الزاوية". غادرت دون أن أودع المدير، قاصدًا الوحدة المدرسية التي كانت تتواجد على مسافة بعيدة عن الطريق الرابط بين مغراوة وتازة. وعلى الرغم من بعد هذه الوحدة الدراسية عن كل ما له علاقة بالحضارة، فقد أسعدني التعيين الجديد، لسبب واحد ووحيد،

وهو أن ثلاثة معلمين كانوا يعملون فيها. حمدت الله على أنني لن أكون وحيدًا، وسأعمل برفقة زملاء أستأنس بهم في تلك الفيافي والقفار.

بعد أربعة أشهر توصلت بأول حوالة تضم أجرة الشهور السابقة. سافرت إلى قرية تاهلة سعيدًا بكنزي الصغير المدون في حوالة صفراء، إشارة لا واعية من وزارة المالية إلى أن أجرة المعلم قاحلة ماديًا. فرحت الوالدة أكثر مني، منبع فرحها أن ابنها أصبح موظفًا يتقاضى أجرًا، وبذلك ستتحقق لها الاستقلالية المالية عن زوجها. بعد أيام قليلة نفذت الوالدة ما كانت تخطط له منذ سنوات، تركت البيت إلى الأبد، والتحقت ببيت والدها. أخبرته بقرارها وبدواعيه، لم يعترض جدي على هجر ابنته لوالدي، فقد علم أنه تخلص نهائيًا من مسؤوليتها هي وأبنائها وألقاها على عاتقي، وهذا ما كان يهمه. منحها بيتًا، وبالمبلغ المالي الذي أعطيتها بدأت تؤثث بيتها بسعادة عروس تزوجت للتو.

بعد مرور سنة، وفي الموسم الدراسي الثاني، ستطلب مني والدتي أن ترافقني برفقة إخوتي إلى مقر عملي كي تجنبني مشقة الأشغال المنزلية اليومية. وافقتُ، وقضينا معًا في مدشر الزاوية ثلاث سنوات، أعتبرها سنوات اعتقال طوعي، وزنزانة بلا أسوار، أو بالأحرى أسوارها جبالها التي كانت تحيط بالمدشر.

الشيء الإيجابي الوحيد الذي خرجت به من هذه التجربة

القاسية، هو أن الفراغ والوقت الفائض عن الحاجة مكنني من ممارسة هوايتي المفضلة، والتي هي القراءة طبعًا. قرأت كل ما استطعت أن أعثر عليه وأقتنيه من كتب. ذات يوم، وبينما كنت أقرأ كتاب المقدمة لابن خلدون صادفت في الكتاب فصلًا ينصح فيه العلامة، على حد تعبير الروائي بنسالم حميش، من أراد أن يصبح شاعرًا أن يحفظ ألف بيت من الشعر ثم ينساه.

قررت أن أجرب نصيحة العالم الشهير لعلي أصبح شاعرًا. حفظت ألف بيت في مدة سنة ونصف، حاولت بعدها أن أقول شعرًا لكن دون فائدة. خطر ببالي أن أحفظ ألف بيت ثانية، لعل قريحتي الشعرية تستيقظ من سباتها. قضيت نفس المدة السابقة في الحفظ، وكانت النتيجة مخيبة أيضًا. لم أيأس، وبدا لي أن أحاول محاولة أخيرة لعل وعسى. تطلب مني حفظ ألف بيت ثالثة في مدة سنة فقط. توسلت إلى قريحتي بأن تجود عليَّ بقصيدة مهما كانت قصيرة، لكنها رفضت، فقررت صرف النظر عن فكرة ابن خلدون، وأيقنت ألا نصيب لي في نظم الشعر. عدت إلى هوايتي المفضلة، قراءة الروايات.

لسنوات بعد ذلك سيراودني شيطان الشعر عن نفسي كما يُقال، وسأنظم العديد من القصائد، لأصدر سنة 2017 ديوانًا موسوما بـ "الطوفان" عن دار روافد المصرية، وهو رابع عمل لي بعد أن كنت قد أصدرت قبله ثلاث روايات.

التعيين الثاني

القراءة كانت لي حبل نجاة من الاكتئاب الحاد، في مجال قروي وجدت بكل صراحة صعوبة في التأقلم مع مناخه وتضاريسه، ونوع البشر الذي كان يقطن في مداشره. بعض المعلمين _ كما سأتطرق إلى ذلك_ فيما بعد حاولوا إنقاذ أنفسهم من عزلتهم في ظروف طبيعية ومناخية قاسية باللجوء إلى المخدرات، الحل السهل، وكانوا كما يقول المثل: "كالمستجير من الرمضاء بالنار".

العزوف عن المطالعة، كان شعار كل من عملت معهم أساتذة ومفتشين، وكانوا لا يفهمون تعلقي المرضي بالكتاب. هذه الملاحظة كانت وما زالت تطاردني حتى الآن وأنا على عتبة التقاعد. كثيرون بمن فيهم زوجتي يستغربون إدماني على القراءة، في زمن هجر فيه سكان العالم العربي، إلا _ من رحم ربك_ الكتاب. وفي زمن الكتابة فيه لا تسمن ولا تغني من جوع. أن تكون كاتبًا في العالم العربي هو أمر لا يعنيك إلا وحدك. إذا لم تكن لاعب كرة متميزًا، أو مطربة تألقت بصوتها أو بجسدها، فستظل في العتمة، لا يتلفت إليك سوى قلة قليلة من الذين أنعم الله عليهم بحب الكتاب.

أتذكـر أنني التقيت يومًا زميلًا لـي في مدينة تازة. وقبل أن نعود إلـى مقر عملنا بمجموعة مدارس العنصـر طلبت منه مرافقتي إلى المكتبـة. قصـدت واحـدة كنت أعـرف أن صاحبها لـم يكن تاجر كتب فحسـب، بـل قارئًا نهمًـا أيضًا. كانـت المكتبة التـي اختفت اليـوم مجاورة لبار اسـمه "الدوفيني". نعم، مكتبـة بجوار خمارة، لوحة سـريالية تلفت الانتبـاه. دخلنا، ألقيت التحيـة على صاحب المكتبـة، ورحت أتجـول مع زميلـي على الرفـوف للاطلاع على المسـتجدات. لفت انتباهـي كتاب لمحمد حسـنين هيكل بعنوان "خريـف الغضـب"، كنت معجبًـا بكتابة الصحفي الشـهير، وكتابه الجديـد كان يتنـاول فيـه حيـاة الرئيـس المصـري المغتـال أنـور السـادات. وما رغبني فيه أكثر المقدمة التي كتبها الشـاعر محمود درويـش للتنويه بالكتاب. أخذته إلى صاحب المكتبة وسـألته عن الثمن، فأجاب :

_ ثمانون درهمًا.

دفعت الثمن، فوجئ صديقي، لم يستسِـغْ أن أشـتري كتابًا بهذا الثمن الباهظ. ثمانون درهمًا كانت في سـنة 1984، مبلغ محترم. همس لي مبتسمًا:

_ فيه جوج كسيوات لدراري.

ابتسـمت، لم أظن أن صاحب المكتبة قد سـمعه. ما إن خرجنا حتى استدعاني هذا الأخير. عدت إليه فقال لي:

_ ما تعاودش تجيب معاك هاداك.

بعد مرور شهرين على انطلاق الموسم الدراسي لسنتي الثالثة في التدريس، جاء المدير يومًا إلينا، وأخبرنا أن النيابة تريد تقليص البنية في فرعيتنا، وأن اثنين منا سيتم نقلهما إلى مؤسسة أخرى.

لم يخطر ببالي أنني سأكون من بين المنتقلين. لذلك فوجئت حين توصلت بوثيقة تعيين تحمل اسمي، واسم المجموعة التي سأنقل إليها، والتي تدعى "م_ م سيدي يحيى". الأستاذ الثاني الذي وقع عليه الاختيار لينتقل معي إلى نفس المجموعة كان صديقي الأستاذ لحسن حباط. لم يسبق لنا معًا أن سمعنا باسم المدشر الذي سننتقل إليه. أخبرنا معلم من رباط الخير كان قد التحق بنا في بداية السنة أنه يتواجد بضواحي مدينة رباط الخير.

حاول سكان مدشر الزاوية الاعتراض على انتقالي. فاتح الشيخ القائد في الموضوع، وعده هذا الأخير خيرًا. لكنه إما أنه لم يتدخل، أو أن محاولته لم تؤتِ أُكُلَهَا. على كل حال كنت سعيدًا بالانتقال، لأنني حقًا سئمت تلك القرية، وأردت الرحيل عنها ولو من باب التغيير.

كان لدي خال يعمل كأستاذ في ثانوية رباط الخير. سافرت إليه، وعرفني على المدير الجديد. رجل أسمر من مدينة مكناس، زوجته أستاذة أيضًا. أخبرني أنني عُيِّنتُ أنا وزميلي في أبعد فرعية في المجموعة، وهذه الفرعية اسمها "البطحاء". طبعًا الاسم الذي

قد يوحي بحي البطحاء في فاس لا علاقة له بمقر تعييني الجديد.

على متن شاحنة حملت أمي وإخوتي وما نملك من أثاث، وسافرنا لساعات طوال إلى مقر عملي الجديد، ولم نبلغ مقر عملي الجديد إلى أن حل الظلام. مدشر البطحاء كان عبارة عن حفرة كبيرة تقطنها قبيلة عربية يطلق عليها قبيلة "بني زَهْنة" يتحدثون العربية، على الرغم من تواجدهم في منطقة أمازيغية قُحة. وقد ذاع صيت هذه القبيلة بين قبائل أغزران وبني وراين عمومًا، لمهارتهم في فن الحيدوس.

حين نزلت أمي وإخوتي من الشاحنة نظروا يمينًا ثم شمالًا، هالهم ما رأوا. فجأة طفق أخي الصغير يبكي، رأيت وجه أمي يربد، وتكاد تشارك صغيرها البكاء. تأثرت للحزن الذي ارتسم كسحابة داكنة على وجهها. لم أكن أريد الإتيان بهم معي هي وإخوتي، لكنها _ رحمها الله_ أصرت على مرافقتي.

بصعوبة كبيرة تمكنا من التأقلم مع المكان. ما هَوَّن علينا المهمة وساعدنا على تجاوز صعوبة وحشة المدشر طيبة السكان الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على ألا يحرم أبناؤهم من التعليم .

في أول يوم لانطلاق الدراسة زارنا المقدم برفقة بعض الرجال. رحبوا بنا أنا وزميلي. ابتسمت حين خاطبنا المقدم قائلًا:

_ لماذا تأخرتما عنا؟ منذ وقت طويل ونحن ننتظركما.

لـم يكن يعرف المسـكين أنني لم أسـمع عن مدشـره قط. وأن قرار التعيين لم يكن بأيدينا، وحلولنا بقريتهم مجرد قسمة ونصيب حتى لا أقول ابتلاء من الله. أجاب سي لحسن حباط:

_ لسنا المسؤولين عن التأخير يا سادة.

وأفهمهم أننا كنا نعمل في مدرسـة أخرى، إلى أن قررت النيابة نقلنا إلى مدشـرهم. تفهموا الأمر. لم ينصرفوا، كان لديهم مشاكل مـع معلـم عُيِّـنَ قبلنا في مدشـرهم وحسـب قول المقـدم فإن هذا المعلـم وجوده كعدمـه، يتعاطى المخدرات، ممـا يجعله يتقاعس عن أداء مهامه. يقضي سـحابة يومه في النوم، ولا يغادر مقر سكنه إلا للضرورة.

طلبـوا منـا، وكأننا نحن أعلى سـلطة في الـوزارة، أن نجد حلًا لمشـكلة هـذا المدرس الـذي يخل بواجبـه. نظرت إلـى صديقي ونظر إلي، ابتسـمنا من بساطة تفكير أولئك القوم. وعدناهم خيرًا، غادروا وهم يدعون لنا بالتوفيق. أدخلنا التلاميذ إلى قسـمينا، بقي تلاميذ المسـتوى الأول والثاني ينتظرون الزميل الذي لم نتشـرف بعد بمعرفته.

لـم يظهر هذا الأخير إلا بعد أن شـارف وقت الحصة الصباحية علـى الانتهاء. ما إن وقعت عليه عيناي حتى أيقنت أن السـكان لم يجانبـوا الصـواب حين أكدوا أنـه يتعاطى المخدرات. لباسـه غير المعتنى به، بل والمتسخ. بقع من الزيت على صدره. شعره المبعثر،

ونظراته الغائبة، وابتسامته البلهاء، كل ذلك أكد ظنوني. سلم علينا ورحب بنا، لينتقل هو بدوره إلى انتقاد السكان الذين كانوا _ حسب رأيه_ مجرد وشاة، ينقلون كل شاردة وواردة إلى المدير.

لم يكن هذا المعلم هو المعلم الوحيد الذي تعرفت عليه، والذي اتخذ من استهلاك المخدرات مطية للسمو على واقع مزر صعب. عرفت مدرسًا آخر كان يعمل في مدشر اسمه "دار بن عثمان" قريب من مقر عملي السابق "الزاوية". وبسبب إفراطه في إدمانه على المخدرات فقد المسكين عقله. سافر ذات يوم إلى مدينة تاهلة، اتجه إلى وكالة البنك الشعبي، سحب النقود، وطفق يفرقها على الناس.

الحفاظ على التوازن النفسي والعقلي في ظروف جغرافية ومناخية صعبة مثل التي عشناها في الثمانينات وما قبلها كان يشكل تحديًا حقيقيًا يواجه أساتذة التعليم الابتدائي بالخصوص، ويؤثر بشكل عميق على أدائهم المهني.

وزارة التربية الوطنية حتى اليوم تأبى أن تحسم في مسألة تعويض الأساتذة الذين يعملون في العالم القروي، وعلى الرغم من طرح هذا الملف على طاولة المفاوضات ما بين النقابة والحكومة في العديد من المناسبات والمواجهات، ما زالت الوزارة تتجاهل هذا المطلب.

أهم ظاهرة طبيعية لفتت انتباهي في مدشر "البطحة". هي أن الشمس كانت تطل عليه متأخرة، لا تظهر إلا حوالي الساعة

التاسعة بتوقيت غرينتش. كانت المدرسة تقع عند مدخل القرية، مما جعلها أعلى بناية فيه. كل صباح كان البقر يغادر وحده البيوت نحو الغابة. يمر القطيع الحيواني الأليف بالقرب من المدرسة في باتجاه البراري والأدغال. يسرح البقر في الغابة، وعند حلول الساعة الثالثة بالضبط يعود القطيع إلى المدشر. هذا السلوك اللافت للبقر الذي يقودها حدسها ويحدد لها زمن العودة إلى البيوت كان يتم يوميًّا، مع احترام صارم للتوقيت. لا يتخلف القطيع ولو دقيقة عن ساعة مغادرته وعودته للمدشر. الأطفال الصغار وبتلقائية فطرية ما إن تظهر أول بقرة حتى يصيح أغلبهم:

_ أستاذ.. البقر.. البقر رجعوا.. نخرجوا لاستراحة.

قبل انتهاء الموسم المدرسي وقعت حادثة مأساوية في المدشر، تستحق أن تذكر في هذا المتن. كانت سيدة شابة تعيش وحدها في بيتها، زوجها كان يعمل في مدينة الدار البيضاء. حاول أخو المقدم _ وهو فتى يافع _ أن يقتحم عليها بيتها ليلًا لينال من شرفها، فضربته بصخرة أردته قتيلًا على الفور.

قامت القيامة، وجاء رجال الدرك ليجروا تحقيقًا حول ملابسات الواقعة. اعتقلوا تلك السيدة، فطفقت تصرخ، ورجال الدرك يقتادونها نحو سيارتهم.

_ أنا دافعت عن شرفي. زوجوا ولادكم، باش ما يتعداوش على عيلات الرجال.

لا أدري مـا الذي حل بتلك المرأة، وما الذي قررت المحكمة في حقها، لأن المدير أرغمني على الانتقال إلى المدرسة المركزية، وكان علي أن أرحل.

التعيين الثالث

الانتقال الثالث هذه المرة تم بإرادتي. وأتحمل كامل المسؤولية في تعيين كارثي، كنت سببًا فيه لسذاجتي، وثقتي العمياء في مدير جديد حل محل المدير المكناسي السابق.

هذا المدير كان ظاهرة لم أشهد نظيرًا لها بين كل المديرين الذين عملت معهم. في وقت قياسي بحق تمكن صاحبنا من نيل شهرة زير نساء بامتياز في المدشر الذي تتواجد به المؤسسة، بل وحتى في مدينة رباط الخير.

وما شجعه على خوض غزواته النسائية دون كلل أو ملل بعده عن أسرته. ترك زوجه في مدينه بركان، ونال حرية كان في أمس الحاجة إليها، فصال وجال، ليعيد أيام مراهقة مضت ربما لم يشفِ فيها غليله من عشق النساء.

وبما أن المتعة لا تكتمل إلا بصاحبة أبي نواس، فقد كانت الخمر ضرورية للاستمتاع أكثر في الليالي الملاح. وبسبب جريه وراء نزواته، فقد كان مفلسًا على الدوام. وليواجه مشاكله المادية كان يلجأ إلى النصب على المعلمين، وكل من توسم فيه أن يحصل منه على سُلفة.

عندما أصـدرت وزارة التربية الوطنية مذكـرة الحركة الانتقالية لسـنة 1990 قررت برفقة زميلين لي المشـاركة فيها. واخترنا نيابة مدينـة الناظـور كوجهة للانتقـال. وبما أن المديـر الجديد كان ابن تلـك المنطقة، فقد استشـرته _ وليتني لم أفعـل_ حول المدارس والمجموعات المدرسية التي علي أن أختار.

انبـرى السـيد المديـر كخبيـر جغرافـي يعـرف المنطقـة وكل المـدراس المتواجـدة فـوق تـراب إقليـم الناظـور. وعلـى ضـوء توجيهاته السامية، حددت المؤسسات التعليمية التي أنوي الانتقال إليهـا. صراحة لم أعتقد أنه سـيبلغ به الكذب حـد تأكيد أنه يعرف المجموعات المدرسـية التي اقترح علي. كان متحمسًـا، وأكد لي أنـه يعرف تلك المؤسسـات التعليميـة أكثر مما يعـرف الوحدات المدرسية التابعة للمؤسسة التي يشرف على تسييرها.

حيـن ظهـرت نتائج الحركـة الانتقاليـة، وكنت مـن المنتقلين، هنأنـي المدير، وأخبرني أن المؤسسـة التعليمية تتواجد في منتجع سـياحي رائـع، اسـمه "رأس المـاء". سـافرت للتعـرف على مقر عملي. لم تكن المجموعة المدرسـية فـي المكان الذي أخبرني به السـيد المدير، وتدخل بعض الموظفين فـي تلك الجماعة الترابية لمسـاعدتي مشـكورين. وبعد عـدة اتصالات، تمكنـت من معرفة مكان تواجدها.

"م ـ م الوحدة"، وهو اسم المؤسسة التي ساقني إليها قدري، أو بالأحرى غبائي، حين أسلمت أمري لمديرنا الظاهرة، كانت تتواجد في ضواحي دائرة "قرية أركمان"، وهذه المدينة الصغيرة، وهي منتجع سياحي معروف، تتواجد بدورها على بعد عشرين كيلو عن مدينة الناظور.

من الصدف الغريبة أن المدير الذي كان يشرف على إدارة تلك المؤسسة كان أستاذي في المستوى الخامس الابتدائي، حين كنا نقطن بمدينة زغنغان. ما جعلني أتذكره على الفور حين التقيت به هو تنكيله بنا فيما ذكرته سابقًا بخصوص يوم الخميس الأسود، حين كانت تحل حصة الضبط بالشكل المرعبة. يطلب ضبط شكل نص طويل يحتل السبورة طولًا وعرضًا، ثم إعرابه جملة جملة وكلمة كلمة. وكان عقلي المسكين يأبى أن يكتشف البنية الإعرابية الخفية للجمل المضمرة. طريقة عقاب هذا الأستاذ لنا كانت متميزة، فكان يمسك لحمة آذاننا بين ظفري أصبعي الوسطى والإبهام ويضغط بقوة، ويمكن للقارئ أن يتصور النتيجة، تيار كهربائي بقوة 350 فولت يسري في كل مسام الجسد. سبب هذا التعذيب السادي هو أننا لم نفهم الإضمار والتقديم والتأخير للمبتدأ والخبر، وما شابه تلك العجائب التي أبدعها النحاة العرب في أوقات فراغهم.

الوحـدة المدرسـية التي كانـت من نصيبي في هـذه المجموعة اسـمها "ولاد حدو حمو". سـأكون خامس أسـتاذ هناك. اثنان من بيـن زملائي كانـوا يتنقلون ما بيـن قرية "أركمان" حيـث يقطنون، والوحدة المدرسية التي يعملون فيها.

الثالـث كان يقطـن برفقـة زوجتـه وابنه فـي بيت غيـر بعيد عن المدرسـة. المدرس الرابع رجل في عقـده الرابع، غير متزوج، من مدينة تطوان، كان جاري في مقر السكن الوظيفي للمؤسسة.

هـذا المعلم ذكرني بالمعلم الذي عملت معه سـابقًا في مدشـر البطحاء، والذي كان يتعاطى المخدرات بنهم. كان زميلي الجديد صـورة طبق الأصل من زميلي السـابق، مع فارق مهم، وهو أن ابن تطوان كان يغلق عليه باب بيته بعد أن ينتهي من حصص التدريس، ويغـرق في تناول المخدرات وقـراءة الجرائد، ولا يغادر غرفته إلا للعمل، أو حين ينفد زاده من الحشيش، فيضطر للذهاب على متن دراجته النارية إلى قرية "أركمان" ليتزود بها.

من بين الأشـخاص الذين تعرفت عليهم فـي هذه الفرعية، ولا علاقـة لـه بالتعليم، إمام المسـجد. كنـا نلتقي عند صـلاة المغرب والعشـاء. نَمَتْ بيننا علاقة صداقة، خاصة وأن سي حسين _ وهذا اسمه_ كان ما يزال شابًا، ولا يكبرني إلا ببضع سنين. توطدت هذه العلاقة حين دعاني أبو أحد التلاميذ إلى مأدبة عشاء في بيته. حضر معنا مجموعة من الضيوف. كان على الإمام أن يقرأ آيات من الذكر

الحكيـم، ولـم يكـن هناك فقيه آخر يـؤازره في القـراءة، وبالصدفة طفـق يقرأ سـورة الواقعة، سِـوَر الواقعة والرحمـن والحديد كانوا من السـور التي درسناها في المسـتوى الخامس الابتدائي، وبقيت راسـخة في الذهن. المهم أنني أعنت الفقيه في القراءة، فاستحسن الأمـر، ومنذ ذلك اليوم كلما دعـاه أحدهم إلى وليمة أصرَّ على أن أرافقه. وحين يحين وقت القراءة يهمس لي مبتسمًا:

_ الواقعة.

أصبح اسـم السورة لازمة يكررها مبتسـمًا كلما حضرنا مناسبة مـا. حـاول هـذا الإمـام أن يزوجني فتاة مـن بنات المدشـر، أبوها مهاجر في دولة ألمانيا، أغراني بالمنافع التي سأجنيها من وراء هذا الزواج. لكنني رفضت.

في سـنة 1991 سـيقرر الرئيس العراقي صدام حسين الدخول إلى دولة الكويت والسيطرة عليها، مما جعل البيت الأبيض بزعامة جورج بوش يجيش دول العالم لشن الحرب على صدام حسين.

هـذه الحرب حركت شـوارع العالـم العربي، ممـا جعل وزارة التربية الوطنية تعلن عن عطلة مدرسـية لمدة أسـبوعين. بعد انتهاء العمليات العسـكرية واندحار جيوش صدام حسـين بدأ الاحتقان يهـدأ، وعادت المـدارس لفتح أبوابها من جديد. سـافرت بدوري لألتحـق بمقر عملي. وصلت إلى مدينة الناظور متأخرًا، كان الليل قـد جن، ولـم يكن بإمكاني الوصول إلى الوحدة المدرسـية حيث

أعمل. قررت أن أمضي ليلتي في المدينة. بحثت عن فندق مناسب لأبيت فيه. بعد جولة طويلة لم أوفق خلالها في العثور على فندق غير مصنف به غرفة شاغرة، لمحت في أحد الشوارع فندقًا كُتِبَ على لوحة خشبية فوق بابه "فندق التجارة".

اتجهت إليه، صعدت درجات سلم مبلط بالزليج الأسود والبني. وجدت شابين جالسين على كرسي خشبي طويل، وسيدة مسنة تتحدث مع شخص من خلف زجاج مكتبها، سمعتها تخبره أن غرف الفندق مملوءة عن آخرها.

بعد أن غادر الشبان الثلاثة لمحتني السيدة، فخرجت إليَّ، وقصدتني. وقفت أمامي وقالت:

_ وأنت.. ماذا تريد؟

ابتسمت وقلت:

_ في الحقيقة جئت لأقضي ليلتي في الفندق، لكن _ وكما سمعت منك_ كل الغرف مملوءة.، وقد تعبت من البحث، أريد فقط أن أرتاح قليلًا ثم أغادر.

تأملتني مليًا، كأنها تريد أن تعرف إلى أي صنف من أصناف البشر أنتمي. ابتسمت وقالت:

_ بما أنك وحدك، لدي غرفة شاغرة، سأسمح لك بقضاء الليلة فيها.

شكرتها، طلبت مني بطاقة التعريف، قدمتها لها. دونت المعلومات الخاصة بي ثم أعادتها إلي.. سألتها عن الثمن، أجابت:

_ مائة درهم.

دفعت الثمن، رافقتني إلى الغرفة، فتحت الباب، أعطتني المفتاح، وتمنت لي ليلة سعيدة. في الصباح استيقظت باكرًا. كان علي أن أصل إلى مقر عملي قبل الساعة التاسعة. أغلقت باب الغرفة بالمفتاح، واتجهت إلى مكتب السيدة صاحبة الفندق، تبادلنا تحية الصباح، شكرتها ثم قدمت لها المفتاح. حين هممت بالمغادرة طلبت مني الانتظار، فتحت درج مكتبها، استخرجت منه مائة درهم، وقدمتها لي. حاولت أن أرفض لكنها أصرت. لم أفهم دوافع سلوكها، انتهى بي التفكير إلى أنها حين اطلعت على مهنتي، من خلال بطاقة التعريف، قدرت أن استخلاص مائة درهم من معلم إثم كبير، وتركها له صدقة عظيمة. لم تكن مهنتي هي ما جعلها تعيد لي النقود. سأعرف فيما بعد أن السيدة الذكية، قررت بعد ليلة من التفكير قرارًا آخر في شأني. طلبت مني وأنا أودعها شاكرًا أن آتي لزيارتها كلما جئت إلى مدينة الناظور، ووعدتها بأن أفعل.

وفيت بوعدي، وكنت أزورها بين الفينة والأخرى كلما قدمت إلى المدينة. تطورت علاقة الصداقة بيننا، وبعد أن توطدت بما يكفي سأعرف أن اسمها الحاجة خديجة، توفي عنها زوجها في

حادثة سير بدولة بلجيكا، وترك لها أملاكًا كثيرة من بينها فندق التجارة، إضافة إلى مسؤولية تربية ابنتين. كبرت الابنتان، وتزوجتا، ولهما الآن من الأبناء الذكور والإناث.

ستصرح لي السيدة بما كانت تريد مني، فقالت في أحد لقاءاتنا:

_ لدي اقتراح أريد أن أعرضه عليك.

قلت مبتسمًا:

_ مرحبًا.

تأملتني هنيهة، ثم قالت:

_ أريدك أن تتزوج حفيدة من حفيداتي، وأن تستقر إلى الأبد في مدينة الناظور. إذا وافقت سأعمل على نقلك إلى هنا. فكر في الأمر، وفي زيارتك المقبلة أخبرني بقرارك.

فوجئت حقًا بعرض الحاجة كما كنت ألقبها. بدا لي عرضها فرصة جيدة، بل فرصة استثنائية كان علي أن أستغلها، لأحقق عدة أهداف، أولها الانتقال من البادية إلى المدينة. الارتباط بابنة الحاجة الميسورة جدًا سيفتح أمامي آمالًا كبرى وعريضة قد تمكنني من مغادرة مهنة التعليم إلى الأبد، وممارسة مهنة أخرى تحقق لي الثراء، بدل البقاء في زنزانة الأجرة طول العمر.

سافرت إلى مدينة رباط الخير حيث تركت والدتي، التي اكتريت لها وإخوتي بيتًا هناك. أخبرتها بعرض الحاجة الريفية.

كانت جدتي مريم رحمها الله حاضرة. أمي رفضت دون تردد. وتفهمت سبب رفضها. المرأة تخاف على نفسها من المرأة. لم يراودها شك أنني إذا تزوجت الفتاة الريفية الميسورة فستفقد معيلها الوحيد، بل وتفقد ابنها إلى الأبد. أمها الحاجة مريم شجعتني على الموافقة، مما تسبب في خصام بينها وبين ابنتها. أذكر أن جدتي قالت لأمي:

ـ واش هاد الولد ما يتزوجش، اللهم يتزوج وحدة لابأس عليها، حسن من وحدة مزلوطة.

يَمَّا مريم كما كنا نسميها، هي نفسها عاشت تجربة مماثلة. كانت يتيمة، توفيت أمها عند ولادتها، وتركتها أمانة لدى عمها، واسمه عقا وسعيد. هذا الرجل كان يملك أراضي كثيرة في قرية تاهلة. ومن الصدف الغريبة أن زوجته كانت عاقرًا. بعد أن توفي عم جدتي أصبحت الوريثة الوحيدة لكل أملاكه. كان جدي ميمون رحمه الله رجلًا فقيرًا معدمًا، يعمل عند عقا وسعيد، فقرر هذا الأخير تزويجه من يَمّا مريم، ليصبح بعد الاستقلال أحد أثرياء القرية.

لا شك أن جدتي استعادت تجربته، وقدرت أنني قد أعيد نفس السيناريو. لكن أمي كان عليها أن تذود عن مصلحتها الخاصة، ولم أُلُمْها على ذلك، الإنسان ابن مصلحته الشخصية. الأب والأم يحبان ولدهما هذا لا شك فيه، ولكن حبهما لنفسيهما أجلُّ وأسمى. بدليل قول المتنبي:

_ خليلك أنت لا من قلت خلي ... وإن كثر التجمل والكلام.

ستستمر والدتي رحمها الله في معارضة ارتباطي بفتيات أخريات. وحين بدا لها أنني تأخرت في الزواج بما يكفي رأت بالصدفة فتاة قدرت أنها تصلح لها أولًا، ثم لي ثانيًا، فعرضت علي فكرة الزواج بها. لم أوافق بدوري على الفور، طلبت أن أرى الفتاة التي اطمأنت لها، وشاء القدر أن ألتقي بها برفقة خالي، قادمة من الثانوية التأهيلية. سألته عنها فأخبرني بأنها بنت فلان، أيقنت أنها هي، على الرغم من أن والد زوجتي كان له بنات أخريات في سن الزواج. عدت إلى البيت، أخبرت والدتي أنني التقيت بالصدفة بالفتاة التي حدثتني عنها.

سألتني باهتمام:

_ هل أعجبتك؟

أجبت:

_ نعم.

وهكذا كتب لابنة الجيران، أم أمير آخر العنقود، أن تكون زوجتي.

لنعُدْ إلى مدينة الناظور، وإلى الحاجة خديجة. اعتذرت منها، بعد أن شرحت لها دواعي عدم قدرتي على الموافقة على اقتراحها. اعتذاري غيَّر كل شيء بيننا، لتنتهي علاقتي بتلك السيدة

الكريمة، والتي لا شك أنها قد التحقت بالرفيق الأعلى، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.

في مدشر أولاد "حدو وحمو" قرأت في أحد الكتب أن الفارابي ولكي يفهم كتاب أرسطو الموسوم بـ "السياسة" أعاد قراءته أربعين مرة، ومؤلف السياسة الذي كتبه المعلم الأول للبشرية، كتاب صعب لا يسبر غوره إلا كل متخصص عرك مصاعب الفلسفة وعركته.

لا أدري كيف نبتت في ذهني فكرة، قررت تنفيذها على الفور. أردت أن أتحدى الفارابي وأقرأ كتابًا أتجاوز من خلاله الأربعين مرة التي أعاد فيها الفارابي قراءة كتاب أرسطو. لم يكن الكتاب الذي اخترته كتابًا فلسفيًا، بل إحدى روايات "حنا مينا" المعنون بـ "الخريف والربيع". وعلى الرغم من أن المنافسة لم تكن متكافئة، لأن قراءة رواية ليست بنفس صعوبة قراءة كتاب فلسفي، وخاصة إذا كان الكتاب لأرسطو، فقد فشلت في تجاوز الفارابي، وتوقفت عند القراءة رقم ستة عشر، واستسلمت.

أدركت أنني لن أكون في مستوى عزيمة وكفاءة المعلم الثاني مهما حاولت. لا أنصح القارئ بخوض التجربة، وإن كنت أعلم أنه لا أحد سيكون أحمق مثلي ليفعل.

هذه القراءة والقراءات السابقة دفعتني ولأول مرة إلى التجاسر على الكتابة. سأخط أول رواية لي على ضوء الشموع في مدشر

أولاد "حـدو وحمو". مـا إن انتهيت من كتابة الرواية التي لا أتذكر اليـوم لا عنوانهـا ولا موضوعها، حتـى مزقتها. فعلـت ذلك لأنها بـدت لي سـاذجة، ولا تسـتحق النشـر. لكنهـا كانـت محاولة، أو بالأحرى أول همسة تنبؤني بأنني قد أكتب يومًا ما هو أفضل.

لم أحزن لفشلي لسببين: الأول أن حدود طموحي كان القراءة، وأتذكـر دومًا قـول الكاتب الأرجنتيني الشـهير بورخيـس: " أنا لا أفتخر بما كتبت، بل أفتخر بما قرأت". أنا أيضًا كنت وما أزال على مذهب هذا الرجل. السبب الثاني أنني لم أكن وبكل صراحة أعتقد أنني سأصبح في يوم من الأيام كاتبًا، ولم أتوقع قط أن أنشر رواية. ما حدث كان مقدرًا ومكتوبًا على حد توقع السيدة "زريقة" رحمها الله.

فـي مدينـة الناظور، وبالتحديـد في مدينة العـروي التي لا تبعد سـوى بواحد وعشـرين كيلـو مترًا عـن المدينة الكبيـرة، كان لدي صديـق انتقـل معي مـن قرية رباط الخيـر إلى هنـاك، وكنت أزوره هنـاك، سـأتعرف علـى مجموعـة مـن المعلميـن النقابييـن. كان العمل النقابي في هذه الفترة نشـيطًا بحق في منطقة الناظور. كانت الكونفدرالية الديمقراطية للعمل هي المسـيطرة. أغلب المعلمين والأساتذة ينتمون إليها.

مـا كان يثير الإعجاب بالنسـبة للعمل النقابي فـي هذه الفترة _ أي فترة التسـعينات وما قبل_ أن الفروع الممثلة للنقابات التقدمية لم تكن تقبل بين صفوفها في الغالب الأعم إلا الأساتذة الملتزمين

بواجبهم المهني، وسلوكهم الأخلاقي لا غبار عليه. وكان ممثلو النقابة في مختلف الفروع على الأقل، كما رأيت في مدينة الناظور والقرى المجاورة مثل العروي وسلوان وقرية أركمان، يقدمون بالفعل النموذج للنقابيين المناضلين، الذين كانوا يحترمون الواجب قبل المطالبة بالحق.

هذا الأمر تغيَّر حسب تقديري الخاص منذ بداية الألفية الثالثة. التحولات السياسية التي انعكست طبعًا على الممارسة النقابية جعلت بعض النقابات تراهن على الكم أكثر من الكيف. بمعنى أن ما أصبح يهم العديد من النقابات هو توسيع قواعدها أكثر فأكثر، بغض النظر عن مدى قناعتهم بالنضال في صفوفها.

صراحة لم أكن من المنتسبين إلى أي نقابة، لكنني فوجئت يومًا حين أراني أحد الزملاء ثلاث بطائق لنقابات متضاربة المرجعيات الفكرية التي لا ينتمي واقعًا إلى أي واحدة منها. حين سألته عن سر اقتنائه لكل تلك البطائق أجاب ضاحكًا:

ـ إلا ما صدقاتش الأولى، تصدق الثانية، وإلا ماصدقاتش الثانية تصدق الثالثة، ومزال نزيد الرابعة.

لم يكن مثل هذا السلوك استثناءً، بل سلك هذا النهج العديد من رجال التعليم. وأظن أن الأمر لم يكن غائبًا عن قياديي النقابات، لكن المسؤولين لا شك كانوا يغضون الطرف، في انتظار أن يتحقق الوعي لدى المناضلين النقابيين.

المشـكلة أن الانتماء النقابي سـيعرف أزمة غير مسبوقة، خلال سـنة 2024، حيث سـيتخلى العديد من رجال ونسـاء التعليم عن النقابـات الأكثـر تمثيليـة، ويرفضون نتائـج الحوار التـي توصلت المركزيـات النقابيـة إليهـا مـع الحكومـة، لتظهـر بدائـل أخـرى، تنسـيقيات خرجت لتحتـج وتناضل من أجل تحقيـق ما لم تحققه المركزيـات النقابية. دام التوتر بين هذه التنسـيقيات ووزارة التربية الوطنية لشـهور عديدة، لتنتهي الإضرابـات بعرض أفضل من قبل الحكومـة، مما أقنع المدرسـين بالعودة إلى أقسـامهم، وإن كانت الاحتجاجات لم تنتهِ حتى كتابة هذه السطور، بسبب أزمة الأساتذة الذين أُوقِفُوا عن العمل.

بعـد أن قضيـت في مجموعة مدارس "الوحدة" سـنتين انتقلت مرة أخرى. هذه المرة كان الانتقال إلى ضواحي مدينة تاهلة، وبعد سـنتين من عودتي إلى بلدتي سـأوفق في مبـاراة التفتيش، لأذهب إلى العاصمة الرباط، حيث يتواجد مركز تكوين المفتشين.

مباراة التفتيش

قبل أن أنجح في مباراة التفتيش دورة يونيو 1994، كنت قد اجتزت هذه المباراة لأول مرة سنة 1992، حين كنت أعمل بمدينة الناظور، وكان مركز الامتحان في مدينة وجدة. المشاركة الثانية تمت في مدينة فاس، بعد أن عدت إلى نيابة مدينة تازة.

النجاح في مباراة التفتيش خلال التسعينيات وما قبل لم يكن مهمة سهلة، فآلاف المعلمين كانوا يتقدمون لها، ليختار المركز الشهير بعد الاختبار الكتابي أقل من مائة معلم معرب ومزدوج ليصبحوا مفتشين. السنة التي سأفوز فيها كانت المناصب المخصصة لهذا الإطار لا تتجاوز الثلاثين منصبًا لمفتشي اللغة العربية، ومثلها بالنسبة للمزدوجين.

تمثلي لمهنة التفتيش وقتها كان مبالغًا فيه، وأظن أن كثيرين من زملائي كانوا يحملون نفس التمثل. الوضع الاعتباري للمفتش في تلك الحقبة كان في تقديري مختلفًا بحق عما أصبح عليه الأمر اليوم. كان المفتش إطارًا مهاب الجانب، وقرارته تفَعّل ما إن تصل إلى النيابة، حتى ولو كان فيها بعض التجاوز. وقد كنت أنا شخصيًا _ كما سأذكر لاحقًا_ ضحية لتعسف مفتِّشَيْن. إن يكونا ما يزالان

علـى قيد الحياة أتمـنَّ لهما الصحة والعافيـة، وإن يكونا قد التحقا بالرفيق الأعلى أتمنَّ لهما الرحمة والمغفرة.

أول مـرة زارنـي فيها السـيد المفتـش كنت أعمل فـي الوحدة المدرسـية "الزاويـة" التابعـة لمجموعـة مـدارس العنصـر. هـذا المفتـش سـأصادفه مرة أخرى فـي نيابة الناظـور، زارني في فرعية "ولاد حدو وحمو" بمجموعة مدارس الوحدة. انتقل من نيابة تازة إلى نيابة الناظور، ليقترب من مسقط رأسه، مدينة وجدة.

علاقتـي بالمفتشـين كان فيها مد وجـذب. بعضهم كان يحتمل نزقي وأنا ابن العشـرين، وبعضهم لم يكن يستسـيغ تبجحي. نعم، بـكل صراحة كنت أنا المعتدي. وبسـبب حبي للقراءة وانغماسـي فيهـا كنت خلال اللقـاءات لا أتورع عن مناكفة المفتشـين، وأنتقد كل أستاذ، قدم درسًا بطلب من المفتش. كنت وبغير وعي أريد أن أثبت للآخرين، مفتشًا كان أو أستاذًا، أنني جئتهم من سبأ بنبأ عظيم.

العجيـب والغريـب، وما سـأقوله مفارقـة غير مفهومة بالنسـبة لـي على الأقل، هـو أنني كنت وعلى الرغم من هـذا التطاول على المفتشـين فـي اللقـاءات التربويـة مقتنعًا بـأن إطـار مفتش صعب المنـال. أغلـب مـن كنت أعرف مـن المعلميـن كانـوا مقتنعين أن النجـاح فـي التفتيش يحتـاج إلى كفـاءة معرفية متميـزة بحق، وأن مركز تكوين المفتشين مؤسسة يتخرج فيها إطار اسمه المفتش، لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه.

أول مفتش سأصطدم به مفتش وجدي أيضًا. كانت اللقاءات التربوية تعقد في مدينة تازة، وبسبب قلة وسائل النقل وصلت متأخرًا إلى المدرسة التي عقد فيها اللقاء. قادني عون المدرسة إلى الحجرة التي كان يتواجد فيها المعلمون والمفتش. فتحت الباب، كان هناك مفتشان: أحدهما مفتش المقاطعة، وآخر زميل له، قرر عقد لقاء تربوي مشترك. ما إن لمحني مفتش المقاطعة حتى نهض، ترك زميله يواصل الكلام وهرع إلي وأوقفني عند عتبة الباب، وطلب مني العودة من حيث أتيت. حاولت أن أقنعه أن تأخري مرده إلى قلة وسائل النقل، لكنه رفض أن يستمع إلي.

كان بإمكان هذا المفتش أن يتركني أدخل وأتابع اللقاء، لكنه أصر على طردي، لأنني في أخر لقاء لي معه لم أتوقف عن مناكفته. فسرَّها في نفسه. بقيت صورتي ماثلة في ذهنه، وحين رآني قرر أن يؤدبني بمنعي من حضور اللقاء التربوي.

واقعة أخرى ستنضاف إلى سابقتها، وسأفهم دلالتهما فيما بعد. في نهاية الثمانينيات قررت وزارة التربية الوطنية أن تلحق السنة الأولى من سلك الإعدادي بسلك التعليم الابتدائي، ليصبح اسمها السنة السادسة من هذا السلك.

هذا القرار رافقته عدة لقاءات تربوية، كُلف المفتشين بعقدها مع الأساتذة الذين ستوكل لهم مهمة تدريس المستوى السادس.

كان اللقاء ينتهي يوميًا بوجبة غداء في داخلية ثانوية تاهلة. في

اليـوم الأخير وعلى غير عادة المعلميـن حضر الجميع ولم يتغيب ولـو واحد منهم. كنـت آخر من التحق بقاعـة الإطعام. بحثت عن كرسـي شـاغر في إحدى الطاولات لأنضم إلـى زملائي لكن دون جدوى. فجأة لمحت كرسـيًا شـاغرًا في طاولة المفتشين، اتجهت إليهم، أردت الجلوس، منعني أحد المفتشين قائلًا:

_ ابحث لك عن طاولة أخرى.

كان تصرفًا عاديًا، فالمفتشـون يريـدون أن يأخذوا راحتهم كما يُقال. ومعلم معهم قد يحد من هذه الحرية. قلت مبتسمًا:

_ كل الموائـد مملوءة يا أسـتاذ، فإما أن تسـمح لـي بأن أتناول غدائي معكم، أو أرحل إلى حال سبيلي.

أجاب مضطرًا:

_ لا بأس، تفضل.

السؤال الذي سأطرحه على نفسي لاحقًا: لماذا طردني المفتش من اللقاء؟ ولماذا بقي كرسـي شـاغرًا في طاولة المفتشين؟ الكثير مـن القراء سـيقولون تم ذلك صدفـة، أجيب: ممكن جـدًا، لكنني أؤمـن بلغـة القـدر الصامتـة، كما أكدت علـى ذلك مـرارًا في هذه المذكـرات، والتـي لا نفهمها في وقتها، ولا تصبـح ذات دلالة إلا عندمـا يحدث مـا يوضحهـا. ونجاحي فـي التفتيـش كان الإجابة المقنعة للصدف السابقة، هذه قناعتي الخاصة.

نعـود إلى لحظة اجتياز المباراة. ذهبت برفقة صديقين كنا نهيئ معًا لها. كان أحدهما متميزًا في مادة الرياضيات، سـبق له أن نجح في مباراة الكتابي، ولم يوفق في الاختبار الشفهي. وبما أنني كنت أدبـي التوجيـه فلم يكـن بيني وبيـن الرياضيات كما ذكرت سـابقًا سـوى الخير والإحسـان، وكانت هـذه المادة العامل الحاسـم في كسب المباراة.

بعـد انتهـاء اختبـار الفتـرة الصباحيـة، والـذي اجتزنا فيـه مادة الرياضيـات واللغة العربية، التقيت بمجموعة من الزملاء من بينهم صديقـاي. دار نقـاش بيننـا حول المادتيـن معًا، تبين لـي أنني كما توقعـت لـن أحصل على نقطـة متميزة في الرياضيـات، وبالمقابل تبيـن لي أن أغلب الزملاء لن يحصلوا على نقطة متميزة في اختبار اللغة العربية.

ذهبنـا إلـى مطعـم لتنـاول وجبـة الغـداء. كان المطعـم غاصًـا بالمعلميـن. بالكاد حصلنـا على مائدة. صوت المدرسـين كطنين النحل، الكل يناقش، الكل يسأل، بل وهناك من تحول إلى أستاذ مُكَوِّن وراح يجادل حول أسـئلة المادتين اللتين اجتزناهما ذلك الصباح.

كان المطعـم الـذي قصدنـاه يقدم السـمك مع القطانـي. أكلنا اللوبيـاء والفاصولياء والسـمك. ما إن انتهينا حتـى أخرج زميلاي دفاتـر دونـا فيهـا ملخصـات لمـادة التربية وعلـم النفـس، وطفقا يراجعانهـا. حاولت أن أفعل مثلهما لكنني لم أسـتطع، تمكن مني

سلطان النوم بشكل غريب.

حاولت مقاومته دون جدوى، في الأخير استسلمت له.

قال أحد الصديقين _ وكان صاحب نكتة_ يسخر مني:

_ نحن في حرب وأنت تنام، انهض لتراجع دروسك.

لم أستجب لدعوته، لأنني حقًا لم أستطع أن أتخلص من سلطة الوسن. أجبته:

_ سأغفو قليلًا، وعندما تقرران النهوض أيقظاني.

بعد أن تم الإعلان عن النتائج، في غضون أسبوعين بعد المباراة، كانت المفاجأة أنني نجحت، ورسب رفيقاي. سيتندر هذان الصديقان بالواقعة أمام العديد من رجال التعليم في البلدة، قائلين:

_ لي نعس نجح، ولي بقاو كيراجعو سقطوا.

أحد الطلاب المفتشين من أبناء مدينة تاهلة، اسمه أحمد العزيزي، سبقني إلى المركز بسنة، هو من اتصل بوالده مدير مدرسة، وأخبره بنجاحي. كنت الوحيد الذي نجح في مدينتي الصغيرة. طبعًا انتشر الخبر بسرعة البرق ليصلني أنا أيضًا.

حدث مثل هذا لم يكن ليمر دون تعليق. هناك من رأى بأنني أستحق النجاح لأنني كنت "أقرأ"، وهناك طبعًا من قال إن نجاحي تم صدفة، وتوقع لي أن أعود بخفي حنين من الاختبار الشفهي، لأنني سأتكَرْدع هناك كما يُقال. أنا أيضًا لم أضمن نجاحي التام،

وكان علي أن أنتظر ما الذي سيقرره أساتذة المركز في الرباط، حين أمثل أمامهم في جولة الشفهي.

سافرت إلى مدينة الرباط ثلاثة أيام قبل الموعد المحدد لإجراء المقابلة الشفهية. لأول مرة في حياتي سأتعرف على مؤسسة مركز تكوين المفتشين المتواجدة في شارع باب تامسنا، والذي كان بعض المفتشين يطلقون عليه باب تامَحْنا، من المحن.

هذا التوصيف اكتسبه المركز بسبب المعاناة التي كان يكابدها الطلاب طيلة سنوات التكوين. فقد كانت سمعة المركز في سنوات ما قبل التحاقنا به (مش ولا بد) على حد تعبير المصريين. كان الطلاب يعانون فيه الأمرَّين قبل حصولهم على الدبلوم. بجرة قلم يمكن لأي أستاذ أن يعيد الطالب المفتش إلى القسم، خاصة في السنة الأولى والثانية من عمر التكوين.

وقد حدث أن منح أحد أستاذة مادة اللغة العربية مشهور جدًا في المركز واسمه "حمزة" في إحدى سنوات التكوين التي لن تنسى، خمسة وثلاثين صفرًا. ففصل الذين حصلوا على النقطة الموجبة للرسوب، عادوا إلى مدارسهم. سميت تلك السنة بسنة "الكار"، أي أن عدد المطرودين كان بعدد كراسي حافلة المسافرين. هذا الأستاذ سيذيع صيته، ليصل إلى كل أرجاء المملكة، ليصبح البعبع الذي يخيف كل المعلمين الذين يفكرون في اجتياز مركز تكوين المفتشين، لأنه كان في لحظة الشفهي (يبهدل) المرشحين، ولا

يوفق في اللجنة التي يكون حاضرًا فيها إلا ذو حظ عظيم.

ستتغير الأمور نسبيًا في مركز تكوين المفتشين، بعدما التحقنا به نحن فوج 1995. وسبب هذا التغيير تعيين مدير جديد، كان أكثر انفتاحًا من سابقيه، وطلب من الأساتذة كما انتهى إلى علمنا أن يتعاملوا معنا بشكل جيد. قال لهم بالحرف الواحد والعهدة على من نقل الخبر:

_ لا يمكن لطلبة نجحوا في مباراة الكتابي، وقبلتموهم في الاختبار الشفهي، أن تطردوهم بعد سنة أو سنتين، بدعوى أنهم لم يعودوا مناسبين لممارسة مهنة التأطير والمراقبة.

الأستاذ "حمزة" يبدو أنه لم يلتقط الرسالة كما يجب، وواصل تسلطه. سيثور عليه طلاب السنة الثانية ويقررون مقاطعته، مع مطالبة الإدارة بتغييره، وستستجيب الإدارة لمطلبهم، ليكلف أستاذ آخر بالتدريس بدلًا منه، وهكذا سيقضي الأستاذ المرعب موسمًا دراسيًا عاطلًا عن العمل.

سيعود هذا الأستاذ لممارسة مهامه في السنة المقبلة، بعد أن تكفل زميل له اسمه "محمدعلوش" في التخصص نفسه، وهو أستاذ رائع ذو كفاءة متميزة، ويتواصل بشكل جيد مع الطلبة، بإقناعه بأن مركز تكوين المفتشين هو مكرز وظيفي ومهني.

والمفتشـون ليس المطلوب منهم أن يتمكنوا مـن اللغة العربية في ثوبها القديم، بل المطلوب منهم التمكن من كل ما له علاقة بتأطير معلمي السلك الابتدائي.

اقتنع سي "حمزة" بوجهة نظر زميله، وبالفعل تغير سلوكه بعد عودته في السـنة التالية لممارسة مهامه. وقد أضحكنا زميل لنا في فوج المفتشـين المزدوجين، حين أخبرنا أن السـي حمزة قال لهم بعد أن أعاد لهم أوراق الفرض الأول، وكان مسـتوى هذا الطالب أقل من المتوسط في اللغة العربية، وقدم إجابة لا تتجاوز سطرين:

_ كلكـم أعطيتكم المعدل وما فوق، وحتـى هذاك لي كتب ليا الحَرْز_ التميمة_ أعطيتو عشرة.

حيـن وصلت إلـى مدينة الربـاط، اتصلت بابن بلدتي الأسـتاذ أحمد. لم تكن معرفتي به وطيدة وقتها. حددنا مكان وزمان اللقاء. جاء في الموعد لمرافقتي إلى المركز. كانت الاختبارات الشـفهية قد بدأت في أول يوم لها، وكان دوري في اليوم الموالي.

أردت أن ألتقي بالمرشـحين الذين اجتازوا الاختبار الشـفهي، حتى أُكوِّن صورة عن الأسـئلة التي تطرح عليهم، كباقي المعلمين الذيـن سـيجتازون الاختبار الشـفهي، تمنيت ألا أضطـر لمواجهة الأستاذ المرعب السي حمزة.

أمام باب مركز تكوين المفتشـين وجدنـا العديد من المعلمين،

منهـم من كان ينتظـر دوره لاجتياز الاختبـار، ومنهم من جاء مثلي ليسـتقصي الأخبار. كان هناك أيضًا الطلبـة الذين يرافقون أصدقاء لهم، أو جاؤوا رغبة في الاطلاع على مجريات المباراة الشفهية.

بكل صدق، ظننت أنني سـأكون المعلم الأقل تمكنًا معرفيًا من بين كل الذين نجحوا في المباراة الكتابية. رافقتني هذه القناعة غير المبررة دون أن أفهم لها سببًا. قدرت أن الذين فازوا في المباراة هم أفضل مني. حكم بنيته دون سند منطقي. ستبدأ هذه القناعة بالتبخر حين دنوت من بعض المرشحين الذين اجتازوا المقابلة، واستمعت منهـم إلـى مـا طُـرِح عليهم مـن أسـئلة، وما قدمـوه مـن إجابات. اسـتغربت حقًا. كانت إجاباتهم _ وبكل صدق_ واهنة غير مقنعة.

فـي طريق عودتنا من مركز تكوين المفتشـين، سـألني الأسـتاذ أحمد:

_ ما رأيك؟

أجبته:

_ إذا كان باقـي المرشـحين مـن طينـة الذيـن اسـتمتعت إليهم اليوم، فإنني سأفوز حتمًا.

في الغد التحقت بمركز تكوين المفتشين، اتجهت إلى الإدارة، قدمت الاستدعاء، أشار العون إلى باب أخضر من ضلفتين، وقال:

_ اذهب إلى تلك القاعة، وانتظر دورك.

اتجهت إلى الباب، دخلت فوجدت المرشحين جالسين إلى طاولات، بعضهم يراجع وثائق حملها معه، وآخرون يتحدثون فيما بينهم. شعرت بجو رهيب، كأن القوم جمعوا ليوم الحشر، ولحظة الحساب حانت.

وبينما نحن ننتظر دخل أستاذ متوسط القامة أصلع الرأس، لا أتذكر ما الذي قاله. حين غادر سمعت أحد المعلمين يقول: هذا هو الأستاذ حمزة. وهكذا تعرفت على الأستاذ البعبع الذي سارت بذكره الركبان كما يُقال.

توسلت مرة أخرى إلى الله كي لا يكون هذا الأستاذ عضوًا في إحدى اللجنتين اللتين ستختبرانني، واستجاب الله لدعائي. أول لجنة استُدْعِيت إليها هي لجنة علوم التربية. دخلت فوجدت ثلاثة أساتذة يجلسون خلف منضدة مستطيلة معصفرة اللون، وأمامهم مرشح ينتظر. ألقيت التحية، قدمت لرئيس اللجنة الاستدعاء وبطاقة التعريف. طلب مني أن أختار ورقة من مجموعة من الأوراق مدون عليها مواضيع تربوية مختلفة. اخترت واحدة، منحوني عشر دقائق لأهيئ الخطوط العريضة التي سأتناولها في العرض الذي سأقدمه أمامهم.

حين انتهوا من المرشح الذي سبقني طلبوا مني أن أتفضل. جلست، وقبل أن يطرح علي أول سؤال دخل عون يحمل صينية عليها كؤوس الشاي. تناول الأساتذة الأكواب، ووضع أحدهم

كوبا أمامي وقال لي: تفضل. شكرته، بقي الكأس في مكانه، لم تكن لي رغبة في الشاي، وأنَّى لي أن أفكر في الاستمتاع بالمشروب الشعبي وأنا في لحظة مصيرية لا أعلم إلى ماذا ستؤول.

أخذت الكلمة، ورحت أقدم أهم نقاط العرض المختصر التي أعددتها في عجالة. وبعد خمس دقائق أو أكثر قليلًا أشار إلي الأستاذ الذي سيدرسني علوم التربية، وكان اسمه _ رحمه الله_ "محمد الفكيكي" أن أتوقف. طرح علي رفيقاه بعض الأسئلة أجبت عنها، ثم استفرد بي السي الفكيكي. كانت أسئلته طبعًا في مجال تخصصه، وكانت لي بعض القراءات في المجال. تركني أتحدث، وختمت الكلام بذكر العالم التربوي السويسري الشهير جون بياجي. سألني: إلى أي مدرسة ينتمي؟ حاولت أن أتذكر دون جدوى. شكرني وطلب مني أن أتفضل.

ما إن تجاوزت عتبة الباب حتى تذكرت المدرسة البنائية، تأسفت لأنني لم أتمكن من تذكرها حين كنت أمام سي الفكيكي، وخشيت أن يؤثر ذلك على التقدير الذي سأحصل عليه من اللجنة.

اتجهت إلى القاعة الثانية الخاصة باللغة العربية، تنفست الصعداء حين دخلت، فلم يكن الأستاذ حمزة بين أعضاء اللجنة. سلمت على الحاضرين، قدمت الاستدعاء والبطاقة الوطنية للأستاذ علوش، فأشار لي بالجلوس، فجلست.

قدم لي كتاب المقدمة لابن خلدون، فتحه على إحدى الصفحات

وطلب مني القراءة. بعد دقائق معدودة أشار لي بالتوقف. طلب مني تقديم ملخص لما قرأت. قبل أن أنتهي من الملخص سمعنا فجأة صوت صراخ وجلبة قادمًا من القاعة المجاورة. نهض الأساتذة الثلاثة جميعًا وغادروا. أحد المشرحين _ كما سأعرف_ سقط مغشيًا عليه من شدة التوتر، و لم تتم إعادته إلى الوعي إلا بعد مضي أكثر من ربع ساعة. بقيت وحدي في القاعة أنتظر. أخيرًا ظهر الأساتذة. أعاد لي الأستاذ علوش بطاقة التعريف وطلب مني التوقيع فوقعت، ودعني قائلًا:

_ بالتوفيق.

هذه واقعة أخرى قد يأبى القارئ الكريم أن يضيفها إلى أسرار القدر. أما أنا فقد فعلت. وما يؤكد ذلك أنني في مساء ذلك اليوم، ألمت بي حمى وارتفعت درجة حرارة جسدي بشكل غريب، منعتني لمدة ثلاثة أيام من مغادرة الفراش. لو أن زائرة المتنبي _ الحمى_ زارتني قبل الاختبار الشفهي بتلك القوة لما تمكنت من اجتيازه، ولما أصبحت مفتشًا أكيد. إنه لطف الله، والحمد لله على كل شيء.

بعد ثلاثة أيام من المعاناة مع الحمى شفيت نسبيًا. تحاملت على نفسي، واتجهت إلى مركز تكوين المفتشين على متن سيارة أجرة. قصدت الشباك حيث تعرض مختلف الإعلانات والمذكرات الإدارية. كانت اللائحة الخاصة بالنتائج النهائية للمباراة مثبتة خلف الشباك، وكان اسمي على رأس القائمة.

مركز تكوين المفتشين

عـدت إلى مدينتـي الصغيـرة، كان الخبر قد سـبقني إلى هناك. الأسـاتذة الذيـن توقعوا نجاحي لـم يفاجئهم الأمـر، وخيبت أمل الذين اعتقدوا أن نجاحي في الكتابي كان ضربة حظ.

قـال الصديـق الذي كان يسـاعدنا في مادة الرياضيـات، بعد أن هنأني على الفوز:

_ كنت على يقين أنك ستنجح.

ابتسمت وقلت:

_ وعلى ماذا اعتمدت في توقعك؟

أجاب:

_ لأنني رأيتك في المنام وقد رسبت.

وأضاف ضاحكًا:

_ وأحداث أحلامي يتحقق دائمًا نقيضها.

لم يكن يدري المسـكين أنه عبَّر حسـب رأي السـيد سيغموند فرويـد عـن رغبة مكبوتـة في رؤيتـي أخفق في الاختبار الشـفهي. سـينجح هـذا الصديق للمـرة الثانية فـي الاختبار الكتابـي لمباراة

التفتيش، سأستقبله هو وصديق آخر من أبناء بلدتي في بيتي في مدينة الرباط. لم يحالفه الحظ للمرة الثانية. كان تأثره بليغًا، بل وراودته فكرة الانتحار. طلبت مني زوجته أن أعيده إلى بلدتنا، سافرنا معًا، وبصعوبة تجاوز مع الأيام إخفاقه. سيتقلب في عدة مهام إدارية، بدءًا من إدارة مدرسة، ليتقلد مسؤولية في أكاديمية العيون.

بعد مدة قصيرة من انطلاق الموسم الدراسي سجلت ملاحظتين أساسيتين، سيتأسس عليهما مستقبل علاقتي بالمركز والتكوين.

الملاحظة الأولى هي أن التمثل الذي كنت أحمله عن مركز تكوين المفتشين، باعتباره مؤسسة الدراسة فيها صعبة بحق ولا يساير فيها إلا جهابذة الطلبة المعلمين، كان تمثلًا خاطئًا. ما كان يدرس في مركز تكوين المفتشين من مواد لا يختلف كثيرًا عما كنا ندرسه في مركز تكوين المعلمين، باختلاف بسيط، تعدد المواد ذات الصلة بعلوم التربية.

لم يكن من الضروري أن نقضي ثلاث سنوات في هذا المركز ندرس الإعلال والإبدال والتعرف على مخارج الحروف وضبطها. عروض يقدمها الطلبة حول مواضيع أغلبها عامة. ستنتبه الوزارة بعد سنين عديدة إلى عدم جدوى قضاء الطلاب ثلاث سنوات في المركز، لتقلص المدة إلى سنتين.

الملاحظة الثانية هي أن المعلمين الذين فازوا معي في المباراة كانوا وبنسبة تناهز التسعين في المائة علميين، أي ذوي توجه

علمي. وبما أن مادة الرياضيات كانت العامل الحاسم في النجاح في مباراة التفتيش الكتابية فقد كاد المركز يكاد يكون حكرًا على الطلبة العلميين. طريقة بناء الاختبار الكتابي لمباراة التفتيش كانت صراحة مجحفة. المعلم ذو التوجه العلمي يمكن أن يحصل في الرياضيات على عشرين على عشرين، في حين أن المعلم ذو التوجه الأدبي لا يمكن أن يتجاوز أربعة عشرة أو خمسة عشرة على عشرين، مهما كان متمكنًا من مواد اللغة العربية والتربية وعلم النفس. لم يكن من المعقول أن تكون الرياضيات وحدها سببًا في إقصاء آخرين ربما كانوا يستحقون ولوج مركز تكوين المفتشين، ذنبهم الوحيد أنهم أدبيون، وغير متمكنين من الرياضيات.

في هذا المركز، المحطة التكوينية الثانية والأخيرة في حياتي العملية، سأدرك فائدة أن يكون الإنسان عصاميًا ورفيق الكتاب الدائم. ألهمني الله عادة القراءة والشغف بها، وكانت فائدة هذه المتعة كبيرة بحق. بعد الأسابيع الأولى من التكوين تأكد لي أنني لن أحتاج لبذل أي جهد دراسي، باستثناء الإعداد بين الفينة والأخرى لفروض الرياضيات، التي كان عقلي لا يستقبل مفاهيمها بيسر وسهولة.

سأتعرف أنا وباقي الطلبة في المؤسسة التكوينية الشهيرة على الأساتذة الذين سيدرسوننا. كان بعضهم أقل ما يمكن القول عنهم تُحَفًا لا نظير لها.

أحدهم، واسمه الأستاذ "ق" رحمة الله عليه، كان يدرسنا ديداكتيك اللغة العربية، كان هذا الأستاذ متمكنًا من مادة اللغة العربية وذكيًا أيضًا، وله ذاكرة قوية كذاكرة الفيل كما يُقال. لكنه _ وكما فهمت_ تعب من مهنة التدريس، لذلك كان رحمه الله يتحول خلال حصصنا معه إلى كوميدي موهوب. أذكر أنه في أول حصة لنا معه قال بعد أن تعرف علينا.

_ واش وجدتوا شي حاجة؟

اعترتنا الدهشة، كان من المفروض أن يقدم لنا هو لا نحن الدرس.

أجبناه:

_ لم نعد أي شيء يا أستاذ.

ضحك وقال:

_ نتما اثنان وعشرون طالبا، ما وجدتو والو. وبغيتوني أنا بحدي نوجد.

ضحكنا من خفة دمه. سنقضي معه سنتين، لم نأخذ منه سوى بهجة الترويح عن النفس، والاستمتاع بنكته وقفشاته اللطيفة. قال لنا ذات يوم:

_ خصكم تخلصوني. بزيز وباز ما يضحكومش بحالي.

أستاذ آخر كان بدوره أعجوبة من أعاجيب مركز تكوين

المفتشين، كُلف بتدريسنا مادة "التربية الخاصة"، ولم يكن بينه وبين التربية الخاصة سوى الخير والإحسان، وما كان يميزه هو امتلاكه لموهبة لم أرَ مثلها قط عند غيره، كان يبدأ جملة ولا ينهيها ويدخل في جملة أخرى ولا ينهيها أيضًا، وهكذا دوليك لمدة ساعتين. ماذا كان يقول؟ الله أعلم.

كان صاحبنا معروفًا لدى باقي الأساتذة بعدم اتزانه. أتذكر أنه رافقنا ذات يوم للقيام بزيارة قسم في إحدى المؤسسات التعليمية بالعاصمة، رافقتنا أيضا أستاذة ديداكتيك الرياضيات. ما إن انتهى المعلم من تقديم الدرس، حتى أخذ الأستاذ الكلمة، وطفق يقول كلامًا لا علاقة له بما قدم المدرس، كانت الأستاذة تجلس غير بعيد عني. سمعتها تقول:

_ هالحماق بدأ.

الأستاذ الثالث العجيب أيضًا، والذي سأختم به ذكرياتي الخاصة بأولئك الأساتذة الأجلاء، كان يختلف عن سابقيه في جديته المفرطة، فإذا كان أستاذ ديداكتيك اللغة العربية ما مسوقش على حد تعبير المغاربة، وإذا كان أستاذ التربية الخاصة لا هو عاقل ولا هو أحمق، فإن أستاذ الرياضيات كان يختلف عنهما في رغبته أن يكون كل شيء مضبوطًا وبدقة متناهية.

أستاذنا الكهل لم يكن على الرغم من جديته ممنهجًا في تقديم دروسه. ربما لأن تخصصه في الأصل كان ديداكتيك الرياضيات،

لا الرياضيات البحتة. قضيت معه سنتين لم أفهم ما الذي كان يقوله.

كنا كطلبة نضحك حين كان يقترب موعد المراقبة. يخصص لنا الأستاذ دقائق معدودة، ليوصينا فيها بأن نخبر أهلنا حتى لا يقلقوا علينا إذا ما تأخرنا في العودة إلى البيت. يقصد بذلك الطلبة المفتشين المتزوجين. ويوصينا أيضًا بألا نخاف ونتسلح بالشجاعة، كأن الأمر يتعلق بحرب لا بمجرد فرض عادي.

ولكي يجري هاته الفروض بشكل ديمقراطي، وتكون الفرص فيها متكافئة بين الطلاب، كان يُنظم القاعة وفق طريقة يتميز بها وحده دون غيره من الأستاذة، كان يضع كرسيًا فوق الطاولة ما بين طاولة وطاولة، حتى لا يتمكن أي طالب من الحديث أو طلب المساعدة من زميله.

يوزع علينا الأوراق، وأثناء الإنجاز يمر بين الصفوف، يحثنا على التركيز قبل الإجابة، وكان لديه جملة مضحكة يتندر بها الطلاب، يقول:

_ أعطيوني فاش نعض.

يقصد أنه علينا أن نستوفي الإجابات حقها، حتى يتمكن من أن يمنح أقصى ما يستطيع من نقاط. ومن شدة صرامته في التنقيط كان يحرص حرصًا شديدًا على ضبطها، ولا يتجاوز حتى ربع نقطة إذا تبين له أن الطالب يستحقها.

حيـن تأكد لـي أن هذا المركز لا علاقة لـه بالصورة المتضخمة التـي حملتهـا له سـنوات طويلة فـي عقلي قبـل وُلُوجِـه، جمعت وطويت معه كما يُقـال، وأصبحت آتي إلى المركز بيدي فارغتين. انتبه زملائي إلى تصرفي، فأصبحوا يطلقون علي لقب "المُسْتمِع"، أي ذلـك التلميـذ الذي لم يبلغ بعد سـن الدراسـة، وجـيء به إلى القسم بموافقة الأستاذ ليستأنس بأجواء المدرسة.

كان هنـاك ثلاثـة أسـاتذة يسـتأثرون باهتمامي، وكنـت أتفاعل معهم أثناء الدرس.

الأول هـو الأسـتاذ محمد الفكيكي، أسـتاذ علـوم التربية الذي ذكرتـه سـابقًا. كان أسـلوبه فـي التدريس متميـزًا، بفضـل التجربة الطويلـة التي راكمهـا في المركز، وبحكم خبرته كأسـتاذ السـلك الثانـي، إضافـة إلـى دماثـة أخلاقه. كل هـذا جعلني أهتـم بمادته، وكنت أناقشه بين الفينة والأخرى في المحاور التي كان يدرسها.

الثانـي هو الأسـتاذ محمـد البيـرات، كان يُصدر برفقة أسـاتذة آخرين المجلة التربوية الشـهيرة "علوم التربية"، كان أستاذًا متميزًا بـدوره، ويقبـل الحوار، وكثيرًا ما كنت أسـأله وأحـاوره حول أهم القضايـا التربوية التي كنت أهتم بها. سأسـتقدمه بعد أن نمت بيننا علاقة صداقة، للمشاركة في ندوة تربوية عقدت في مدينة تازة.

الأسـتاذ الثالث الذي أثـار اهتمامي أيضًا، وكنت أحب التفاعل معـه، هـو الأديـب محمد أسـليم. كان يـدرس مناهـج البحث، له

إصدارات عديدة، وكنت أنتقل معه من النقاش حول درس المناهج التربوية إلى مجال الفكر والأدب خاصة الرواية والقصة التي كنت شغوفًا بها، ويبدع فيها.

في السنة الثالثة تم تقليص المواد. سأرتاح من الرياضيات، انتفت هذه المادة وباقي المواد العلمية الأخرى من التدريس، لتحل محلها المواد التي لها علاقة بالتربية والتكوين الميداني. غياب مادة الرياضيات جعلني أشعر بأن السنة الأخيرة سنتي بامتياز، لأن المواد المتبقية كنت متميزًا فيها.

عندما حان وقت إنجاز البحوث، وطفق الطلاب يبحثون عن الأساتذة الذين سيأطرونهم، كنت قد حسمت أمري مسبقًا، واتصلت أنا وزميل لي كنا قد اتفقنا أن نعد معًا بحثًا مشتركًا، بالأستاذ محمد الفكيكي. طلبنا منه أن يكون مؤطرنا في إنجاز بحث موسوم بـ"ببيداغوجيا السؤال". وافق على الموضوع، وبدأنا العمل.

كان يقطن معي طالب حاصل على إجازة في شعبة البيولوجيا. كان مستواه في اللغة العربية متواضعًا، وكان هذا الضعف يقلقه. وليعالج هذا النقص قرر أن يكون بحثه في موضوع الخطأ في اللغة العربية بسلك التعليم الابتدائي، واختار الأستاذ علوش مؤطرًا له. حاولت ثنيه عن قراره، لأنني كنت أعرف أن الأستاذ علوش وإن كان أستاذًا متفهمًا، سيأتيه بصديقه الأستاذ حمزة ليناقشه، وهذا

الأخير طبعًا لن يرحمه. لكنه أصر على رأيه، قائلًا:

_ أنا في حاجة لأطور نفسي في مجال اللغة العربية، والبحث عن فرصة لأتمكن من ذلك.

أجبته:

_ يا عزيزي، سيكون أمامك الوقت الكافي لتسد هذه الثغرة. نحن في هذا المركز علينا أن نختار الأساتذة الذين سنرتاح معهم، وأثناء المناقشة لن يأتينا المؤطر بأستاذ مثل السيد حمزة ليبهدلنا. السي علوش لا غبار عليه، الله يعمرها دار، لكنه في المناقشة سيأتيك بالأستاذ حمزة، وكن على يقين أنه سيريك النجوم في عز الظهر، كما يقول المصريون.

رفض زميلي نصيحتي. قلت لأنهي النقاش معه:

_ اللهم إني قد بلغت اللهم فاشهد.

وحدث ما توقعت بالفعل. حين حل موعد المناقشة، مسح به الأستاذ حمزة الأرض كما يُقال. أذكر جملة ما زالت عالقة في ذهني، خاطب بها السيد حمزة زميلنا، أمام الطلبة الذين حضروا المناقشة، قال له ساخرًا:

_ موضوع بحثك عنوانه الخطأ اللغوي، وهذا البحث كله أخطاء.

كانت النتيجة عند ظهور النتائج النهائية لامتحان التخرج أن صديقي حصل على الرتبة الأخيرة، وكنت أنا من بين الخمسة

الأوائـل. حين رآنـي وأنا أدخل المركز لأطلع علـى النتائج، وكان قد رآها قبلي، قال:

_ أصبحنا نرى المعجزات.

يقصـد أنه كيف لي أنا الـذي كنت أقضي وقتي لا أهتم بدروس وما يجري في المركز، تبوأت المراتب الأولى، بينما وهو وآخرون، الذيـن كانـوا يقضـون جـل وقتهم فـي بيوتهـم يحفظـون منهجية تدريس المواد، جاءت أسماؤهم في مراتب متأخرة. لم أعلق على قولـه، وكأن ما فـاه به لا يعنيني. أتمنى أن تصله هذه المذكرات هو وآخرين غيره، ليفهمـوا أن التفتيش كان مجرد محطة، وليس نهاية السـير بالنسـبة لـي. تطلعاتي كانت تتجـاوز الحصـول على دبلوم مركز تكوين المفتشين. وهذا التوصيف لم يكن يعنيني.

هـذا الزميل سـيتم عزله بعـد عدة سـنوات في مديريـة صفرو. دخل في شـنآن مع زملائه حول التعليم الخصوصي، مجال خصام العديد من المفتشـين، لأنه مورد رزق إضافي، والصراع حوله حاد بين بعض المفتشـين. أرسل هذا الزميل إلى المجلس التأديبي وتم عزله. صراحة على الرغم من تشدده وعدم مرونته، لم يكن يستحق القسوة التي عومل بها.

فـي هـذه السـنة أي سـنة تخرجنا فـي مركـز تكوين المفتشـين سـنة 1998 سـيصل الاشتراكيون إلى سـدة الحكم. حصل حزب الاتحاد الاشـتراكي على المركز الأول في الانتخابات التشـريعية،

وعين الملك الراحل الحسن الثاني المناضل عبد الرحمن اليوسفي رئيسًا للحكومة. كان لهذا التعيين الوقع الإيجابي الكبير على المغاربة، الذين استبشروا بالحكومة الجديدة خيرًا. أما أنا فكان وصول الاتحاديين إلى الحكم وبالًا عليَّ. لماذا؟ لأن السيد اليوسفي رحمه الله وأثناء تشكيل حكومته، قسم وزارة التربية الوطنية إلى وزارتين: وزارة التعليم الابتدائي، ووزارة التعليم الثانوي والعالي. وكنا نحن المعلمين الذي ولجوا مركز تكوين المفتشين بالسلم التاسع ضحية هذا التقسيم الذي ترتب عنه تأخير في صرف تعويضات السلم العاشر، الذي يخوله دبلوم مفتش تربوي، لمدة ست سنوات. رحم الله سي اليوسفي الرجل المناضل النزيه.

نيابة شيشاوة

أقامت إدارة المركز حفلًا جرت العادة أن تقيمه نهاية كل سنة. صادف أن كان السيد محمد ساعف وزير التربية الوطنية وقتها. امتلأت القاعة الكبيرة عن آخرها بالطلبة المفتشين في مختلف الأسلاك والتخصصات، والأساتذة المكونين، إضافة إلى الشخصيات التي رافقت السيد الوزير.

تناول مدير المركز الكلمة، شكر السيد الوزير على الحضور، ونوه بالمفتشين الذين توجوا سنوات تكوينهم بنيل الدبلوم الذي سيؤهلهم لممارسة مهنة التفتيش. أكد السيد المدير على الدور المحوري للمفتش في تطوير المنظومة التربوية، وتمنى التوفيق للجميع.

جاء الدور على السيد الوزير ليلقي كلمته. اشرأبت الأعناق لسماع كلمة السيد ساعف، كان الرجل مشهورًا كمثقف قبل أن يكون وزيرًا. هنأنا، ونوه بدوره بأهمية المفتش في الرقي بالمنظومة التربوية، وعلى أدواره الطلائعية، مؤكدًا على أن المدرسة المغربية تدين بالشيء الكثير للمفتش التربوي. تداول على الكلمة بعده كل من: المفتش العام للوزارة ورئيس الموارد البشرية، وأعاد الرجلان ما قيل قبلهما.

هل كان المتدخلـون يتحدثون بجد؟ ومقتنعين حقًا بما تفوهوا به؟ أم أنهم فقط كانوا يقولون كلامًا جميلًا لا بد أن يُقال؟ مزاولتي لمهنـة التفتيش لأكثر من عقدين، وحتـى كتابة هذه المذكرات، لم تقنعني قط أن الإدارة المركزية، أقصد وزارة التربية الوطنية، كانت على الدوام في صف المفتش. محطات نضالية سأعيشها كمفتش، خاصـة بعـد إنشـاء النقابة التـي كنت من بين مؤسسـيها فـي مدينة فاس، وما عشته أثناء مزاولتي للمهنة سيؤكد لي أن الإدارة بدءًا من المديريات الإقليمية والجهوية ووزارة التربية الوطنية، لم تكن دومًا في مسـتوى خطاب التنويه بالدور الطلائعي لفئة المراقبة التربوية.

انتهى حفل التخرج، وانفض الجمع. أصبحت الخطوة المقبلة هي انتظار التعيين. كان من المفروض أن أعود إلى نيابة تازة، لسبب منطقي، وهو أن ترتيبي كان يخول لي ذلك، ثم إن نيابة تازة لم تكن مـن النيابات التي تحظى باهتمام المفتشـين. والذين كانوا يحطون الرحـال فيها، كانوا يجعلونها مجرد محطـة عبور نحو مدنهم التي لـم يتمكنوا من العودة إليها. في هذه السـنة، أي سـنة تخرجي، لم تظهر من نيابات مدن الشـمال سـوى نيابة شفشاون، والتحقت بها المفتشـة الوحيـدة التي كانت طالبـة معنا. النيابـات المتبقية كانت كلها في الجنوب، ما بين نيابة شيشـاوة ونيابة الداخلة. وكان حظي أن أبدأ من نيابة شيشاوة.

لماذا لم تظهر نيابة تازة كما كان يحدث كل سنة، مما مكن أغلب مفتشي مدينتي من العودة إلى نيابتهم الأصل؟ الإجابة لم أفهمها حينها، سأدركها وأقتنع بها حين قررت كتابة هذه المذكرات. لو أنني عدت من حيث أتيت، أي إلى نيابة تازة، لما تمكنت من جمع مادة هاته المذكرات.

بعد انتهاء العطلة الصيفية، وحلول موعد انطلاق موسم دراسي جديد، بدأت أول رحلة لي إلى مدينة مراكش. وصلت إلى مدينة النخيل قبل غروب الشمس، بعد أن قضيت ثماني ساعات على متن القطار، كانت فرصة جيدة لممارسة متعتي الدائمة، والتي هي القراءة. توجهت إلى ساحة جامع الفنا الشهيرة. أول مرة تطأ قدماي هذه الساحة التي قيل الكثير عن سبب تسميتها بجامع الفنا.

حين سألت الحاج "غوغل" عن أصل التسمية أجاب بما يلي: "يعزي البعض أصل تسمية المكان بجامع الفنا لقربه من ساحة قصر الحجر المرابط الذي اكتشفت أنقاضه تحت جامع الكتبية".

كلمة "الفنا" يمكن أيضًا أن تفيد الفناء بمعنى الدمار والتخريب، ويؤكد هذا الطرح مجموعة من الشهادات التاريخية تجمع كلها على وجود جامع مهجور وسط هذه الساحة التي أصبحت ذات شهرة عالمية.

وورد في كتاب "تاريخ السودان" لعبد الرحمن بن عبد الله السعدى التمبكتي (1596_ 1655م) لدى حديثه عن الطاعون

الـذي ضرب مراكش على عهد السـلطان أحمـد المنصور الذهبي مـا يلي: "وقـد أدركت أن الأمير السـلطان مولاي أحمد أنشـأ بناء الجامع، ووضعه وضعًا عجيبًا، فسُمي بذلك جامع الهناء، ثم شُغل عنـه بتـرادُف تلك المِحـن، ولم يُكملـه حتى تُوُفي، فسـمي بذلك جامـع الفَناء"، (طبعة برديـن، 1898، ص 205). غير أنه من غير المؤكد أن المقصود هو الجامع الحالي أم جامع اندثر.

للغـروب في سـاحة جامـع الفنـا منظر بديـع رائـع. المصابيح بأنوارها اللجينية والصفراء تغمر السـاحة الخالدة. حلقات لرجال من مختلف الأعمار منتشـرة على طول الساحة وعرضها. مبدعون بالفطـرة، يقدمون لوحات فنية مسـرحية وبهلوانية رائعة، لجمهور جاء من داخل المغرب وخارجه للاستمتاع بأجواء الساحة الشهيرة.

المراكشـيون مهووسـون بحب الضحك والترفيـه عن النفس، ولهذا السـبب اكتسـبوا عن جدارة واسـتحقاق لقـب بهجاوة. إلى جانب حلقات الهـزل والضحك، كانت هناك حلقات أخرى تقدم فيها ألعاب رياضية بهلوانية وسحرية. المهم أن كل تلك الحلقات المنتشـرة في السـاحة الرحبة كان لها جمهور يتابع ما يقدم من قبل أولئك المبدعين بإعجاب واهتمام.

قضيـت وقتًا غير قصيـر في متابعة تلـك الحلقات. لاحظت أن التي كانت تجلب أكبر نسبة من المتابعين هي تلك التي يكون فيها الحكواتـي أكثـر بـذاءة وجرأة على الخـوض في الممنـوع. تناوله

للقضايا المسكوت عنها، كالجنس، والزواج الطلاق، وعلاقة الذكور بالإناث، كانت تجلب جمهورًا غفيرًا. يحب المشاهدون أن يعبر الغير عما هو مخزون في وعيهم ولا وعيهم، من أشياء بذيئة يعشقون سماعها على لسان الغير.

وبما أن السهر كان يمتد في الساحة الشهيرة إلى وقت متأخر من الليل، فقد كان لا بد من توفير مطاعم توفر للزوار مختلف أنواع الأكلات. المطاعم كانت تنقسم إلى قسمين: منها التي تتواجد في محلات مبنية مخصصة لهذا الغرض، وأخرى تمتد في الهواء الطلق للساحة. يضع أصحاب المطاعم المتنقلة طاولات مغطاة بفُرُش من قماش غالبًا ما تكون بيضاء، مع كراسٍ لدائنية بنفس اللون. يقدم الطباخون مختلف الأطعمة والوجبات، بدءًا من الحلزون، وحتى اللحوم المشوية، والمبخرة، وكل ما تشتهي الأنفس.

نسبة حضور السياح الأجانب في الساحة كان لافتًا. هندامهم، ولغاتهم المختلفة تؤكد أن للمغرب سمعة طيبة في مختلف أنحاء المعمور. لاحظت أيضًا أن الإناث الأجنبيات كن يعشقن أن يصبغن أناملهن بالحناء من قبل نساء مختصات في النقش والتزيين، واقتناء منتوج الحرف التقليدية.

بعد أن تعبت من التجوال في الساحة الشهيرة قررت أن أحلق شعري، ثم أبحث عن فندق أقضي فيه ليلتي. اتجهت إلى أول محل حلاقة صادفته، استقبلني صاحبه، وكان شابًا في نهاية عقده

الثالث، بالترحاب. لم يكن لديه زبائن. أشار لي بأن أتفضل. أخذت مكاني على كرسي أسود اللون. لفني بمئزر أبيض ثم سألني عن نوع الحلاقة التي أريد. طلبت منه أن يقوم بعملية تشذيب فحسب.

وبما أن الحلاق مراكشي، فقد كان من المستحيل ألا يحاول جذب أطراف الحديث معي. من لهجتي حدس أنني غريب عن المدينة، فقرر التعرف على زبون جاءه من مدينة أخرى. وبسرعة انغمسنا في الحديث. سألني عن مسقط رأسي، أخبرته أنني من مدينة تازة. تغاضيت عن ذكر مدينة تاهلة تجنبًا لمزيد من الشرح. والحقيقة أنني لم أكذب، فأنا وإن كنت أقطن مدينة تاهلة عاصمة قبائل بني وريان الذين أنتمي إليهم، إلا أنني ولدت في مدينة تازة.

سألته بعد أن انتهى من استجوابي عن مدينة شيشاوة. فاجأني حين أخبرني أنه سمع عنها، لكنه لا يعرف أين تتواجد بالضبط، وأضاف مبتسمًا:

_ لا عليك، سآتيك بالخبر اليقين حالًا.

توقف عن قص شعري، واتصل هاتفيًا بأحد معارفه. توقعت أن تكون المكالمة قصيرة، لكن الحلاق نسي وجودي وغرق في حديث مطول مع صاحبه. ابتسمت وأنا أتذكر نصًا قرائيًا درسناه في المستوى الخامس الابتدائي. عنوان النص "عند الحلاق". تروي القطعة القرائية قصة فتى يافع ذهب إلى حلاق ليحلق له شعره، وبينما كان الحلاق يقص شعر الشاب، دار نقاش بين

بعـض زبائنه حول الحرب العالمية الثانيـة، وأدلى كل واحد بدلوه بخصوص الحرب الكونية. اعترض الحلاق عما سـمع من زبائنه، وراح يوضـح لهم الأماكن التي اشـتبك فيها الحلفـاء ضد القوات النازيـة. وليكـون إجرائيًـا في شـرحه اعتمد رأس الزبون كوسـيلة تعليميـة، وحولـه إلى خريطة، حـدد عليها بالمقـص الأماكن التي شهدت المعارك بين جيوش الحلفاء وجيوش المعسكر النازي.

تحـول رأس الفتى المسـكين إلى نتوءات، شـوهت جمجمته، فـزع الزبون حين رأى ما حل برأسـه، نهض وأطلق سـاقيه للريح، وتبعـه الحلاق يطلب منـه أن يعيد له المئزر، فلم يلتفت إليه الفتى، وواصل العدو.

قطع علي الحلاق المراكشي حبل ذكرياتي المدرسية قائلًا:

ـ صافي عرفت فين كاينة.

سألته:

ـ فين؟

أجاب:

ـ تبعد عن مدينة مراكش جنوبًا بـ 71 كلم.

شـكرته، وبعـد أن أنهـى حلاقة شـعري عزمني علـى كوب من الشـاي. حاولت أن أعتذر لكنه أصر، وما كان علي سـوى القبول. كنت في حاجة ماسـة إلى الراحة، أنهكتني السـاعات الطويلة التي

قضيتها على متن القطار، والتجوال في ساحة الفنا. وقبل أن أغادر أوصاني بزيارته مرة أخرى، ووعدته بأن أفعل.

قضيت ليلتي في مدينة سبع رجال في فندق قريب من منارة الكتبية، وفي الصباح نهضت باكرًا، تناولت إفطاري في مقهى شعبي. طلبت براد شاي وبيضًا مقليًا. سألني الجرسون الشاب:

_ هل تريد لَحْسَوَّة؟

لأول مرة أسمع بهذه الكلمة، التي سنصبح أنا وإياها أصدقاء لمدة تزيد على العقد من الزمن. قلت من باب الرغبة في الاكتشاف ليس إلا:

_ أريدها.

لحسوة _ لمن لا يعرفها _ هي عبارة عن دقيق السميد مطبوخ في الحليب، مع بعض التوابل الخفيفة. هذا المشروب لا يغيب عن موائد المراكشيين في وجبات إفطارهم أبدًا. أعجبت به حقًا، وأصبحت من المداومين عليه كلما حللت بمدينة مراكش.

بعد أن انتهيت من إفطاري غادرت المقهى، واتجهت إلى محطة باب دكالة. قصدت الساحة التي تتواجد بها سيارات الأجرة. سمعت "كُورتيًا" ينادي:

_ شيشاوة بلاصة .

تقدمت نحوه، وقلت:

_ شيشاوة من فضلك.

أجاب:

_ مرحبًا.

أخذني إلى سيارة أجرة، وخاطب شخصًا سأعرف أنه السائق، قائلًا:

_ بلاصة شيشاوة.

شيشاوة بلاصة، الجملة التي كان الكورتي لا يكل عن ترديدها، والتي تعني أن السيارة التي ستنطق إلى مدينة شيشاوة تحتاج إلى راكب واحد فحسب كي تغادر، لم تكن صحيحة، كان الكورتي يكذب من أجل جلب المسافرين. كنا فقط ثلاثة ركاب، وكان علينا أن ننتظر وقتًا غير قصير قبل أن يأتي الزبون السادس، والذي من دونه لا يمكن للسيارة أن تنطلق.

انتهى إليَّ صوته _ أي الكورتي_ يصيح :

_ شيشاوة بلاصة.

ابتسمت، وبقيت انتظر مع الركاب الثلاثة.

الطريق الصحراوي نحو مدينة شيشاوة ذكرني بطريق تازة وجدة، والذي كان بدوره يخترق أراضي منبسطة قاحلة. مع كل كيلو متر نقطعه مبتعدين عن مدينة مراكش تقل الخضرة، ويمتد البساط الترابي القاحل. سارت السيارة تقطع بيداء صحراوية

معصفـرة الإهاب، تمتد إلى حد نهاية البصر. انتبهت إلى قطيع من الجمال يرعى في فلاة، منذ عقود لم أرَ الجمال بشكل مباشر. آخر عهدي بها في صباي يوم كنا نقطن مدينة عين بني مطهر.

بعـد سـاعة أو يزيـد قليـلًا وصلنا إلـى مدينة شيشـاوة. لم تكن مدينـة بمعني الكلمة. كانت مجرد قرية صغيرة بحجم مدينة تاهلة. أصبحـت عمالة بعد تعديـل ترابي جعل من مدينـة مراكش ولاية، وشيشـاوة والحـوز إقليميـن تابعيـن لها. سـتعرف مدينة شيشـاوة توسـعًا عمرانيًا سـريعًا، وحين غادرتها بعد ثلاث عشـرة سـنة إلى مدينة خنيفرة، كان الامتداد العمراني قد اكتسـح كل الأراضي التي كانت فارغة في المدار المجاور للمدينة.

سـألت عن مقـر النيابة في المحطـة، أخبرني أحـد الركاب أني أحتاج إلى سيارة أجرة تقلني إليها. وصلت إلى مقر عملي الجديد على متن سـيارة أجرة. كانت البناية مسـيجة بسـور مصبوغ باللون البني المائل إلى الحمرة، لون مراكش الشهير. دفعت ثمن الخدمة للسائق، وقصدت البناية.

دخلت عبر الباب الكبير للنيابة المنشأة حديثًا. لم أتبين المصالح الإدارية. كان من المفروض أن أتجه إلى مصلحة الموارد البشرية، لأوقع محضر التحاقي. كانت البناية شبه فارغة. وقبل أن أعثر على ضالتي، سمعت صوتًا يناديني.

_ أستاذ..

انتبهت إلى مصدر الصوت، رأيت شخصًا في مثل سني أو يكبرني ببضع سنوات. اتجهت إليه، ودون سلام أو ترحيب قادني إلى مكتبه. طلب مني الجلوس، ما إن جلست حتى دخل شخص آخر سأعرف أنه مدير مدرسة. وكما لم يقدم لي نفسه لم يقدم لي الموظف الذي التحق بنا. حدست أن الشخص الذي جلس قبالتنا على كرسي خلف مكتب خشبي صغير، رئيس مصلحة الشؤون التربوية.

سأعرف فيما بعد أنه هو أيضًا خريج مركز تكوين المفتشين، أي أنه مثلي مثله مفتش التعليم الابتدائي. كان من المفروض أن يرحب بي ويعاملني بمودة، لكنه لم يفعل، وبدا له أن يتعامل معي كإداري، بل وكرئيس لمصلحة تهم المفتشين. تأسفت أن يكون أول لقاء لي مع زميل لي تم بطريقة غير لبقة، ومما زاد من استفزازي أسلوب حديث هذا الزميل، كان يتحدث بعجرفة، وينتقد الوزارة ومركز تكوين المفتشين الذي تخرج فيه، كأنه حصل هو استثناءً على دبلوم مركز تكوين المفتشين، من جامعة هارفارد، أو جامعة مرموقة في الغرب.

سيترك لدي هذا الزميل صورة سيئة عن المفتش، الذي يتحمل مسؤولية إدارية، وستتعزز لدي هذه القناعة مع مرور السنوات، مما جعلني أخلص إلى نتيجة مفادها أن بعض المفتشين حين يتحملون مسؤولية إدارية، سواء كنواب إقليميين أو كرؤساء مصالح، يصبح

زملاؤهم هم أعدى أعدائهم.

استغربت حقًا _ وما زلت_ من التحول الكافكاوي الذي كان يصيب بعض زملائي خلال تجربتي الطويلة معهم. فجأة يحل بهم ما حل بغريغوري بطل كافاكا في روايته "المسخ". نعم، كان بعض الزملاء الذين يتحملون المسؤولية الإدارية يصبحون كغريغور، بفارق مهم بحق، وهو أن بطل رواية المسخ كان يعرف أنه تحول إلى حشرة، بينما المفتش الإداري يظن نفسه أصبح ديناصورًا بإمكانه التهام زملائه.

هذه الشيزوفرانيا لم ينتبه لها كافكا، ولم يشر لها في روايته الشهيرة، فبطله اقتصر على وعيه بأنه صار حشرة، وحاول أن يتعامل مع وضعه الجديد على هذا الأساس. لم يتقمص أو يتوهم شكلًا حيوانيًا أكبر وأضخم من الكائن الذي تحول إليه. لم ينتقل من دور الحشرة إلى دور الفيل أو الأسد. ظل حشرة واحترم تحوله. المفتش الإداري _ وليسوا كلهم طبعًا_ ينسى أنه مجرد مفتش، هذا أصله الوظيفي، أما المسؤولية التي تحملها فهي مسؤولية عارضة، وستنتهي اليوم أو غدًا، ليعود إلى عمله الأصلي، وقد حدث ذلك لكثير من المفتشين ممن تقلدوا مسؤولية إدارة نيابة أو مصلحة، عزلوا وعادوا إلى إطارهم الأصلي. وقوع المفتش في فخ التحول الكافكاوي الذي ذكرت، حين يجلس على كرسي المسؤولية، يجعله يتوهم أنه أصبح بقوة الرجل الأخضر العجيب، الذي لا حد لقوته.

في السنة الثانية من التحاقي بنيابة شيشاوة ستقع فضيحة أخلاقية مدوية، سيكون بطلها هذا المفتش المعروف بصلافته بين زملائه، ويتم اعتقاله برفقة رئيس مصلحة الموارد البشرية، ومفتش سابق بتهمة الارتشاء والتحرش الجنسي. كان اعتقال هؤلاء الأشخاص قضية الموسم بامتياز، بلغ صداها وزارة التربية الوطنية، فعُزِل النائب ليعود إلى إطاره الأصلي، مفتش تربوي لسلك التعليم الثانوي.

سيحاكم رئيس مصلحة الموارد البشرية، وزميلنا المفتش الذي ذكرت، إضافة إلى مفتش تربوي سابق كان قد أشرف ولسنوات عديدة على تسيير نفس المصلحة. ستدوم المحاكمة التي جرت أطوارها في المحكمة الابتدائية بمدينة "إيمنتانوت" لعدة أيام، ليقرر القاضي في النهاية إدانة الجميع. حكم بشهر نافذ في حق رئيس مصلحة الموارد البشرية، وشهرين غير نافذين في حق زميلينا المفتشين.

الحكم نجم عنه توقيف المفتشين عن العمل، مع توقيف الأجرة، ليجد هؤلاء الموظفون الثلاثة أنفسهم في وضع صعب. وبما أن "يدك منك ولو كانت مجذامة" كما يقول المثل المغربي، فقد تناسى المفتشون ما كان يصدر عن زميلنا رئيس مصلحة الشؤون التربوية من تصرفات رعناء، وقرروا تقديم مساعدة مادية له وللزميل الآخر، في انتظار أن تنتهي مدة عقوبتهم، ليتوصلوا برواتبهم.

أول اجتماع لي مع باقي المفتشين في مقر عملي الجديد تم في الرابع من شهر شتنبر سنة 1998. الاجتماع ترأسه النائب الإقليمي الذي سيتم إعفاؤه كما أسلفت. رحب بالجميع، ورحب أيضًا بالمفتشين الجدد، وكنا ثلاثة، ثم قدم عرضًا حول مستجدات الموسم الدراسي الجديد.

انسحب النائب بعد انتهاء اللقاء، لينقسم مفتشو التعليم الابتدائي إلى قسمين: مفتشي اللغة العربية ومفتشي اللغة الفرنسية، بهدف توزيع المقاطعات. سأكتشف موضوع خلاف آخر بين زملائي، وسأتعود عليه مع السنين لأنه كان دائما يطرح في بداية السنة. توزيع المقاطعات والخلاف حول مؤسسات التعليم الخصوصي خاصة، كان في بعض الأحيان يصل ببعض المفتشين إلى التشابك بالأيدي، لولا تدخل العقلاء منهم لتهدئة الوضع.

قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق، هذا كان شعار البعض منا. تأطير مؤسسات التعليم الخصوصي يعني دخلًا إضافيًا، ولا يمكن التخلي عنه لأي سبب من الأسباب. في مدينة مراكش سمعت أن أحد المفتشين كان يؤطر ثماني مؤسسات، كيف يتمكن من ذلك؟ الله أعلم.

مسألة أخرى كانت تسبب حربًا خفية بين بعض الزملاء. الأمر يتعلق بالمهام التي يتم إنجازها مقابل تعويض. تشتد المنافسة للحصول على التكليف الخاص بهذه المهام. وفي المقابل المهام

غير المعوض عليها بقدرة قادر تجد اسمك دائمًا في القائمة.

وسأروي هنا قصة مضحكة حقًا، تبين ما ذهبت إليه. في إحدى النيابات التي عملت فيها طبعًا، قدم مفتش نفسه دون استشارة أحد، ممثلًا للمفتشين كلما تعلق الأمر بمخاطبة النائب أو التفاوض معه بخصوص قضية من القضايا التي تهم المفتشين. لم يكن يفعل ذلك مجانًا، كما سيتضح لاحقًا، وإن كان وقتها يتظاهر بغيرته على الإطار. فلحاجة في نفس يعقوب كان يلعب هذا الدور الدونكيشوتي. حين انطلقت عملية تأطير المفتشين في اللغة الأمازيغية من أجل تدريسها بشكل أوسع في المدرسة المغربية، اشترطت المذكرة الصادرة عن وزارة التربية الوطنية أن يكون المفتش ناطقًا بالأمازيغية. وبما أن بطلنا لم يكن ناطقًا بها، وكان قد أزمع الذهاب إلى الرباط ليستفيد من التكوين، حتى يشارك في تكوين المعلمين مقابل التعويض طبعًا، فقد وجد حلًا في قمة الذكاء الغبي، ليقنع المسؤولين بأحقيته في المشاركة. أجاب رئيس مصلحة الشؤون التربوية الذي نبهه إلى الشرط، كما روى لي مفتش حضر الواقعة، قائلًا دون أن يطرف له جفن:

ـ زوجتي أمازيغية، وتتحدث بهذه اللغة.

ما علاقة زوجته بالموضوع؟ الله أعلم. المهم أن الإدارة غضت الطرف عن جوابه الأحمق، وسمحت له بالمشاركة، بينما لم يشارك مفتشون ناطقون بالأمازيغية.

لندع التأطير والمراقبة جانبًا، ولننتقل إلى مجال الأدب، لنزاوج مابين الحكي الوظيفي، والمتعة الأدبية، لأن انطلاقتي الأدبية، وبداية خوض تجربة الكتابة والنشر، ستتم خلال اشتغالي بنيابة شيشاوة.

سنة 2007 كتبت رواية أخرى. أو بالأحرى أول رواية لي ستعرف النور وتنشر. لم أمزق ما كتبت كما فعلت مع تلك الرواية التي كتبتها سنة 1990 في إقليم الناظور. احتفظت بروايتي الجديدة التي عنونتها بـ"الوحش"، وفي كل مرة كنت أعيد قراءتها، أجد أنها لا تستحق الإعدام كسابقتها. لكن رهبة الكتابة الأولى، ومحاولة النشر، كانت ترعبني حقًا. وقد تأكد لي ذلك حين قرأت المقولة التالية لأحد الروائيين: "إذا أردت أن تفضح نفسك فاكتب كتابًا". وأظن أننا نحن المغاربة أكثر شعوب الأرض خوفًا من الإنتاج الأدبي، ومن الكتابة بشكل عام. ما يجعلنا نهاب الكتابة هو الخوف من انتقاد الآخر. الحارس الذي ثُبت في أدمغتنا جميعًا، ويخوفنا من الكتابة، رافقنا طيلة المراحل التعليمية التي مررنا بها. الكل يُحرم الخطأ ويعتبره فضيحة لا تغتفر. لا أحد يؤمن بأن الخطأ هو الوجه الآخر للصواب، على حد قول "باشلار". ولكي نخرج من باب واسع على حد تعبيرنا الدارج، نبتعد عن القراءة وكذلك الكتابة ما أمكن، لنريح ونستريح.

مررت طبعًا بتجربة الخوف هاته لوقت غير قصير. اليوم تخلصت منها بشكل نهائي، بعد أن أصدرت عدة كتب، ولم يعد

يهمني أن يكتشف أي منتقد أخطاءً فيما أكتب، سواء كانت أخطاء إملائية أو أسلوبية. وعزز من شجاعتي قول غابرييل غارسيا ماركيز إنه كان يرسل بعض المخطوطات لرواياته بها أخطاء إملائية إلى دور النشر حين كانت تُقرأ هناك، كان الموظفون يعتبرونها أخطاء رقن، لأنهم كانوا مقتنعين أن غابريل غارسيا الكاتب العالمي الكبير الحاصل على جائزة نوبل لا يمكن أن يرتكب أخطاء كهذه. أديب آخر شجعني على فضح نفسي وإصدار كتاب، هو ميلان كونديرا، الذي قال "أنا لم أوقع مع القارئ أي عقد حول طريقة الكتابة". وعليه فأنا أكتب كما أشاء وأريد، والجمهور له الحق أن يقرأ لي، أو أن يُعرِض عما أصدره من كتب.

ومع كل هذه الأقوال المشجعة، قررت أن أعرض هذه الرواية على كاتب محترف، ليقرأها ويعطيني رأيه فيها. تيمة الرواية تمحورت حول منطقة بني وراين إبان فترة الاستعمار. العذاب الذي عاشه السكان في منطقة تاهلة والمناطق المجاورة لها، كما كان الحال عليه في مختلف مناطق المغرب، على يد الاستعمار الفرنسي، وعلى يد قواد أمازيغ، كانوا أشد بطشًا من المستعمر بأبناء جلدتهم، كان حقا لا يحتمل. حاولت استعادة واستحضار قهر أمة في عمل أدبي، حتى تظل الذاكرة الشعبية حاضرة، وليقرأ الأبناء الذين ولدوا بعد الاستعمار الفرنسي ما مر بالآباء والأجداد من محن.

فـي سـنة 2013 شـاءت الظـروف أن ألتقـي بزميـل مفتش في التخطيط، كان من بين قلة قليلة من المفتشـين الذين كانوا يهتمون بـالأدب. قـرأ لي بعض القصـص القصيرة التي نشـرت في العديد من المنابر الورقية. أعجب بها، وحين أخبرته عن الرواية، تحمس لقراءتها. بعثت له بها عبر البريد الإلكتروني. كان رأيه إيجابيًا بحق، وأخبرنـي أنه على صلة صداقة بالشـاعر المعروف حسـن نجمي، فطلبت منه أن يسـأله إن كان على اسـتعداد لقراءتهـا. وافق زميلي واتصل بالشاعر، الذي وافق بدوره على إلقاء نظرة على الرواية.

انتظرت رأيه على أحر من الجمر، وأخيرًا جاءني الرد، وما زال قولـه يرن في أذني وأنا أكتب هذه المذكرة: "إنها أجمل من العديد من النصوص في الساحة". اقترح عليَّ أن أغير العنوان. طلبت منه أن يقترح عليَّ ما يراه مناسبًا للرواية.

قال:

_ ما رأيك في عنوان الزغاريد.

أعجبنـي العنـوان، ووافقت عليه، لتنشـر أول روايـة لي في دار النشر ضفاف، بلبنان.

حيـن نما خبـر إبداعاتي إلى بعض الأصدقاء، سـألوني لماذا لا أؤلـف كتبًا في مجال التربيـة والديداكتيك كما يفعل بعض الزملاء المفتشـين وأسـاتذة المراكز وكلية علوم التربية، ويجنون من ذلك

دخلًا إضافيًا؟ بدلًا من كتابة الروايات التي قد لا يلتفت إليها أحد، في زمن تراجعت فيه عادة القراءة بشكل مريع.

رفضت الفكرة لسببين: الأول هو أن الكتابة الروائية والقصصية كانت حبًا راسخًا في القلب والروح، ولا أكتبها مقابل الكسب المادي. أقصى ما أرجوه هو ترك اسم بعد الرحيل عن الدنيا، يذكر بأننا مررنا بها. أما السبب الثاني فهو أنه لكي تقدم إضافة نوعية في مجال التأليف التربوي والبيداغوجي، يجب أن تكون عالمًا بارزًا في هذا المجال. عليك أن تكون بقوة جون بياجي، أو بنجامين بلوم، أو جون ديوي، وغيرهم الكثير. أما عملية خذ من هنا وهنا وتضمين ما تم جمعه بين دفتي كتاب على طريقة copier_coller ونشره في مطبعة على نفقتك لهدف تجاري، فهذه العملية بالنسبة لي لا جدوى منها، وما طبعه أي أستاذ أو مفتش تربوي، سرعان ما تزحف عليه رمال النسيان، بسبب تواضعه وتكرار ما جاء به الآخرون، بشكل مشوه في الكثير من الأحيان.

خلال فترة عملي في مدينة شيشاوة، والتي دامت ثلاث عشرة سنة، كما أشرت إلى ذلك آنفًا، كنت أتنقل عبر القطار مرتين على الأقل في الشهر، ما بين مدينة تاهلة ومدينة مراكش. انتبهت منذ الشهور الأولى إلى ظاهرة تستحق الملاحظة. المسافرون المغاربة الذين كانوا يشاركونني رحلاتي التي تدوم أكثر من سبع ساعات نحو عاصمة النخيل، لا أحد منهم كان يحمل معه كتابًا ليزجي

بـه الوقت قبل الوصول إلـى الوجهة التي يقصدهـا. بعضهم كانوا يجلبون معهم جرائد، لا لقراءتها، بل لفك الكلمات المتقاطعة.

الأوربيـون والأمريكيـون الذين كانوا يسـافرون معنـا على متن نفـس القطار، هـم وحدهم من كانـوا يحملون الكتـب ويقرؤونها خـلال تلك الرحـلات. ذات يـوم وكنـت متجهًا إلى مقـر عملي، شـاركني المقصورة شـابان وفتـاة. الكتاب الـذي رافقني في تلك الرحلة كان الحرب والسـلم لتولسـتوي، مكتوب باللغة الفرنسـة. طلب مني أحدهما رؤية الكتاب، قدمته له، سألني بعد أن تأمله:

_ هل تقرأ الفرنسية بشكل جيد؟

ابتسمت وأجبت:

_ بين المتوسط واللا بأس به.

قال دون أن يبتسم:

_ معذرة، شـخص يقرأ تولستوي لا بد أن يكون متمكنًا من لغة موليير ليفعل ذلك.

صـورة أخرى بقيـت عالقة في ذهني من هذه السـفريات، وهي لامرأة فرنسية في أرذل العمر كما يُقال، وجهها اكتسحته التجاعيد، هزيلة الجسـم، ترتدي ملابس أنيقة، كانت تمسك بين يديها رواية "الماضي البسيط" للروائي المغربي إدريس الشرايبي. هذه السيدة جعلتني أقتنع أن الاهتمام بالقراءة بالنسـبة للغرب مسـألة حضارية

ووجودية، وأن أمة لا تقرأ لا يجب أن تندب حظها على تخلف بَنَتْهُ بأيديها طوبة طوبة.

حب القراءة في ذاتها، باستثناء القراءات الوظيفية، لم ألمسه قط لدى الذين عرفتهم في مهنة التفتيش. لم ألتقِ مفتشًا كما ذكرت سابقًا يهتم بالقراءة خارج المجال التربوي بالخصوص، إلا نادرًا، أغلب الذين شاءت الظروف أن تجمعني بهم كانوا مؤطرين مدرسين، بمعنى أن اهتمامهم كان ينصب على ما هو مدرسي محض. هذه الملاحظة لا تنسحب على المفتشين الذين عرفتهم فحسب، بل حتى على المديرين الإقليميين، ومديري الأكاديميات، بل وحتى على الوزراء الذين تعاقبوا على وزارة التربية الوطنية، باستثناء عبد الله ساعف مدير مركز الدراسات والأبحاث في العلوم الاجتماعية، والذي يملك العديد من المؤلفات المهمة في المجالين السياسي والفكري بصفة عامة، كان وما يزال له حضور في المشهد الثقافي الوطني.

ملاحظة أخرى سجلتها طيلة أربعة عقود من الممارسة التربوية، وهي أن الوزراء الذين كانوا يتعاقبون على كرسي الوزارة لم نكن نلمس منهم الحرص على استمرارية مشاريع المؤسسة الوزارية، التي يتركها لهم زملاؤهم السابقون.

سأعطي مثالًا واحدًا في هذا الصدد: فعندما تولى الوزير المراكشي محمد الوفا رئاسة وزارة التربية الوطنية، أول ما قام به

هـو توقيف العمـل ببيداغوجيا الإدماج، التي تبنتها زميلته السـابقة "لطيفـة العابـدا". لـم يُجْـرِ الوفا أي تقييـم موضوعـي لبيداغوجيا كانـت في بداية تنزيلها، لمعرفة مدى صلاحيتها، وهل بإمكانها أن تخـرج المنظومـة التربوية من تعثرها، وتجعلنـا نصعد في الترتيب الذي نصنف فيه دومًا عربيًا ودوليًا في المراتب الدنيا؟

أمـوال طائلـة صرفـت، وسـاعات مـن التكويـن لا حصـر لها أهـدرت، ليقـول السـيد الوفـا رحمـه الله سَـلينا. لـم يقـدم دليلًا للبيداغوجيا المعدومة، وبقيت المدرسـة المغربية تسير على هدى مـن الله. إلى أن ظهر مشـروع أخر جديد، اسـمه TARL الهندي الأصـل. الكل اليـوم يتغنى بفوائده، وقد رصدت لـه أموال طائلة، أكثر من ثمانين مليار درهم. السؤال الذي يطرح نفسه اليوم وبشدة هو: هل ستنقد مدرسة الريادة فعلًا المدرسة المغربية؟ أم أن مصير تلك الأموال سيعرف نفس الهدر الذي اتهم المخطط الاستعجالي بإهدارها لتبقى دار لقمان على حالها؟

ما نخشـاه هـو أن يعين وزير آخـر بدلًا من الوزيـر الحالي "بن موسـى"، ليوقف هو الآخر مشروع مدرسة الريادة كما فعل محمد الوفا مع بيداغوجيا الإدماج، لنقف تائهين، في انتظار أن يأتي وزير آخر من دولة أخرى، بمشـروع بيداغوجي جديـد، يراهن عليه من أجل إخراج المنظومة التربوية من عنق الزجاجة.

استغرقت تجربة العمل في نيابة شيشاوة سنوات طويلة. مكنني السفر المستمر من الاطلاع على تجارب إنسانية غنية. في كل رحلة كنت ألتقي بأناس لا أعرفهم، أسمع منهم أمورًا غريبة وعجيبة. تجارب بعضها أغرب من الخيال نفسه. واقتنعت بقول الكاتب الروسي الكبير أنطوان تشيخوف وهو يقول: "الواقع أغرب من الخيال. قد يحاول الروائي أو القاص أن يبتكر ويبدع شخصيات متميزة من بنات أفكاره ليحكي عنها، بينما الواقع يقدم لنا عشرات القصص الأخاذة، والتي تنتظر عينًا لاقطة، وقلمًا جريئًا ليكتب عنها".

قصص الناس بالفعل كانت وستظل مادة أدبية أكثر من رائعة لجعلها مواضيع للكتابة، لن يتمكن كل الكتاب من الإحاطة بها مهما حاولوا، لأنها نهر الحياة المتدفق على الدوام، والزاخر بكل ما هو مثير وعجيب. الناس بشكل أو بآخر هم الحياة، والحياة هي أحداث وقصص.

سأختم هذا الفصل بحادثة عشتها أنا شخصيًا في العاصمة الرباط، وارتأيت أن أذكرها في هذا المقام. نزلت ذات مساء من القطار في محطة الرباط _ المدينة. كان من عادتي أن أزور العاصمة، لأن والدتي كانت تقطن هناك، وقبل الذهاب إليها اعتدت أن أزور مكتبات العاصمة. أبدأ بمكتبة الألفية الثالثة، لتواجدها على مسافة غير بعيدة عن محطة القطار، ثم أنطلق بعدها

إلى مكتبات أخرى، لأتعرف على الإصدارات الأدبية الجديدة.

قبل أن أصل إلى قبة البرلمان، لاحظت تواجد سيارات رجال الأمن بالقرب من المؤسسة التشريعية. في تلك السنة كان قد أُشِيع نبأ مفاده أن البرلمان مهدد بعمل إرهابي، مما جعل إدارة الأمن المغربي تتأهب لحماية المؤسسة التشريعية. ظننت وأنا أرى شابًا وشابة أجنبين يمران بجانب البرلمان أن المنع قد رفع، فواصلت سيري، لكنني كنت واهمًا في تقديري، إذ إنني ما إن دنوت من البرلمان حتى أوقفني شرطي شاب، وطلب مني الانتقال إلى الضفة الأخرى من الشارع. لم أستسِغْ منعه، وأنا أرى الأغراب يمرون بكل حرية أمام واجهة المؤسسة التشريعية التي تمثل المغاربة. سألته:

ـ وعلاش هادوك سمحتوا ليهوم يدوزوا قرب البرلمان؟

أجابني بصلافة:

ـ راه كنهدر معاك.

بمعنى أن الأمر لا يعنيك. نعم رجل أمن بسيط، وجد المسكين فرصة لإثبات وجود ذاته النكرة. استقوى ببذلته وبمن معه، وتحول إلى مستبد صغير، وهي إوالية معروفة في علم النفس، حين يتماهى المرؤوس برئيسه، ويستغل الفرصة لإطلاق عقال الطاغية الصغير الذي استيقظ فجأة في شخصيته المقهورة.

لـم يكن هناك مجـال لمواصلة المجادلة مع الرجـل، كان لديه أوامـر، وكان عنده رغبة قوية لينفذهـا بعنف غير مبرر. توقفت عن مناكفته. واصلت السـير وأنا أتسـاءل: هل حقا أنا مواطن مغربي؟ وهل هـذا البلد بلدي؟ أم هو بلد هؤلاء الأغـراب الذين يتجولون في شوارعه كما يحلو لهم، بينما يمنعني مثل هذا البوليسي البسيط أنـا وغيري مـن المرور بجوار مؤسسـة عامـة من المفـروض أنها تمثلني كغير ي من المغاربة؟

نيابة خنيفرة

نفـذ صبري وأنا أتنقل لسـنوات طويلة ما بيـن مدنيتي الصغيرة ومدينة شيشـاوة. كان مركز تكوين المفتشـين قد أغلـق أبوابه ولـم تعـد وزارة التربية الوطنية تصدر المذكرة الخاصة بمباراة التفتيش. الأمر الذي ترتب عليه إلغاء الحركة الانتقالية للمفتشين.

ظـن أغلـب المفتشـين _ وأنـا منهم_ وحتـى الأسـاتذة الذين كانوا ينتظرون المباراة، أن الوزارة لم تعد في حاجة إلى المفتشـين التربوييـن، وأنهـا تريد أن تكتفـي بما لديها، في انتظـار أن ينقرض المنتسـبون إلى هذا الإطار إما بالتقاعد النسبي أو بالتقاعد العادي، أو بالموت قبل أن ينهوا مدة عملهم.

في سـنة 2011 أفـرج فجأة عن هـذه الحركة، فشـاركت فيها، وكان يسـمح لنا باختيار خمس عشرة نيابة، عبأت المطبوع بالعدد المطلوب، بدءًا بنيابة تازة وانتهاءً بنيابة خنيفرة، وشاء القدر أن يتجاهل المشـرفون علـى الحركـة الانتقالية كل النيابات السـابقة، ليسـتقر رأيهم على تعييني في آخر نيابة طلبتها، والتي هي طبعًا نيابة خنيفرة.

لـم تعجبني طبعًا النتيجة التي أسـفرت عنهـا الحركة الانتقالية، لأننـي بموجبها سأسـتمر في مواصلـة رحلاتي المكوكيـة التي لا تنتهـي. حاولـت أن أعـزي النفس بأنني على الأقل قلصت مسـافة

التنقل إلى النصف تقريبًا.

مدينة خنيفرة كنت أعرفها من قبل، كانت خالتي تقطن فيها، وكنت أزورها بين الفينة والأخرى. كان أحد أصدقائي بمركز تكوين المفتشين قد انتقل إليها قبلي. السي لحسن بوستة، من بين المفتشين الذين أعتز بصداقتهم، ومن النوع الذي يربأ بنفسه عن الصغائر، ليؤكد أن لدينا في الهيئة مفتشين نعتز بهم.

هذا الصديق الطيب، أتذكره بحادثة لطيفة وقعت في السنة الأولى للتكوين. طلبت منا الإدارة أن نختار ممثلًا للطلاب، ووقع الاتفاق بالإجماع على الأستاذ لحسن بوستة، لرصانته وطيبته.

حين بلغ إلى علم أستاذنا السي محمد الدرقاوي _ رحمه الله_ أن ممثل الطلاب اسمه لحسن بوستة، لم يكف عن الضحك طيلة الحصة، وهو يقول بين قهقهة وقهقهة:

_ فاش دَرْتُو بوستة ممثلًا لكم، كونوا هانين.

ينتقل للحديث في موضوع آخر ثم يعود إلى نفس النقطة. يضحك مرة أخرى، ويردد نفس الجملة:

_ قلت ليكم فاش درتو السي بوستة ممثلًا لكم، تهناو ومَتْخمْموش.

الأستاذ الدرقاوي لم يكن يقصد أن يسخر من زميلنا، بل كان يقصد الكاتب الأول لحزب الاستقلال، السيد محمد بوستة، وبطريقة

إسـقاطيه سـاخرة ربط مـا بين اللقبيـن، أو بالأحرى نفـس اللقب.

اتصلت بهذا الصديق حين وصلت إلى مدينة خنيفرة، استقبلني بحفاوة، ثم رافقني إلى النيابة كما كانت تسمى وقتها، وعرفني على بعض رؤسـاء المصالح ، خاصة رئيس مصلحة الشـؤون التربوية، ورئيس مصلحة الموارد البشـرية. وقعت محضر الدخول. قضيت ليلتي في بيت السي بوستة، وفي الغد حضرت معه ومع باقي المفتشين لقـاء الدخـول المدرسـي الـذي يترأسـه كالمعتـاد السـيد النائب.

سـأتعرف على مفتشـين صراحة سعدت بالعمل مع أغلبهم في هذه النيابة. لن أكرر مرة أخرى ما سبق أن ذكرته، وما سيصبح أمرًا معتادًا عند بداية كل موسـم دراسـي. أقصد الصـراع المألوف بين بعض المفتشين حول توزيع المقاطعات.

سـأتوقف عند حدثين مهمين عشـتهما في نيابة خنيفرة، وأرى أنهما يستحقان الذكر:

الحـدث الأول هو توقيف زميلين لنـا، بتهمة لها علاقة بالتعليم الخصوصي. جاءت لجنة من الوزارة للتحقيق في الموضوع. اسْتُدْعِي المفتشون إلى النيابة لاستجوابهم. وعلى الرغم من تنويع الأسئلة، إلا أنها كانت تتمحور بشـكل خاص حول المفتشـين المذكورين.

بعد مدة قصيرة، جاء قرار توقيفهما لمدة شهرين. وبما أن مدينة خنيفـرة مدينـة صغيرة، فقد أصبـح القاصي والدانـي على علم بما

حدث لزميلينا، كما انتشرت شائعة بين الأساتذة أن أحد المفتشين هو من بعث برسالة مجهولة إلى المفتشية العامة بخصوص زميلينا، يتهمهما فيها بأنهما يبتزان ماديًا المؤسسات الخصوصية التي أسندت إليهما. هل حقا كتبت هذه الرسالة أم لا؟ الله أعلم.

الحدث الثاني الذي شكل حدث السنة بامتياز هو أنني كنت وزميل لي بطلية.

ذات يوم ذهبنا بعد الظهيرة، لزيارة مؤسسة تعليمية، وحين دخلنا إلى المؤسسة وجدنا جيشًا من التلاميذ في الساحة يلعبون ويصرخون، وبعضهم صعد فوق أشجار كانت تتواجد في الساحة، بينما كان معلم ومعلمة واقفين يتجاذبان أطراف الحديث غير آبيهن بما يحدث حولهما.

كانت الحصة حصة التربية البدنية، وكان أغلب الأساتذة وعلى الرغم من توقيعهم على استعمال زمان يتضمن حصتين لهذه المادة، لا يعبؤون بها، وأقصى ما يفعله بعضهم كما هو الحال بالنسبة لهذين الأستاذين، هو ترك التلاميذ يلعبون في الساحة كيفما اتفق، في انتظار أن ينتهي زمن الحصة.

أمام تلك الفوضى العارمة، والتي تدمر منها الأساتذة الذين كانوا يشتغلون في الأقسام حين زرنا بعضهم، دخل زميلي مفتش اللغة الفرنسية _ وكان من الخريجين الجدد_ في مشادة كلامية مع الأستاذ، حول تخليه وزميلته عن مسؤوليتهما تجاه التلاميذ.

رفض الأستاذ تنبيه المفتش، وتحول النقاش إلى صراخ بينهما. حاول المدير أن يهدئ من التوتر، وكان برفقته أحد المعلمين، هذا الأخير سيفجر الوضع بكذبة اختلقها، وأبدع في ابتكارها، ماسيترتب عن ذلك البهتان احتجاجات على مستوى النيابة ستدوم لأسابيع.

أخذنا المدير إلى مكتبه. ذكره زميلي بمسؤوليته. وقال له إنه هو أيضًا له دخل في الفوضى التي أحدثها التلاميذ، وكان عليه قبل قدومنا أن ينبه الأستاذين، ويطلب منهما القيام بعملهما. طبعًا المدير كبعض زملائه، يغضون الطرف عن حصص التربية البدنية، والكل متفق على أنها تنفذ بتركها كما يقول المثل.

غادرنا المؤسسة، وكان علينا أن نتصرف، وجهنا مراسلة إلى السيد النائب في الموضوع، وكانت هذه المراسلة الشرارة التي جعلت أغلب معلمي نيابة خنفيرة يخرجون للاحتجاج ضدنا بشكل غريب.

جماهير بأكملها جاءت إلى مقر النيابة لتحتج على أننا طلبنا من الأستاذين أن يتحملا مسؤوليتهما تجاه التلاميذ، أثناء حصة التربية البدنية، وقد نجح المعلم الذي ذكرت سابقًا في إعطاء بعد آخر للنازلة، حين أشاع بين رجال التعليم أنني قلت لزميلي أحثه على الكتابة بالأستاذ الذي دخل معه في مشادات كلامية "اكتب بدين مو". هذه الجملة التي اقتبسها ذلك المعلم من حادث آخر كان متداولًا بكثرة في وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية وقتها. يتعلق

الأمر بجملة "طحن مو" التي قيلت في حق الشاب "محسن فكري" المسمى بـ"المطحون"، والذي كان يبيع السمك في مدينة الحسيمة، وقتل بطريقة مأساوية تحت عجلات شاحنة لجمع النفايات.

أمام هذا الوضع المتأزم، لجأت النيابة التي لم يكن موقفها صارمًا تجاه ما يقع، وللتملص من مواجهة النقابات، إلى القيام بمراسلة الأكاديمية الجهوية بمدينة بني ملال، تطلب منها أن ترسل لجنة للتحقيق في النازلة. بعد أيام معدودة جاءت لجنة مكونة من مفتشين للتحقيق معنا.

ما حز في النفس أن لجنة مكونة من زملائنا المفتشين جاؤوا فرحين سعداء بما كلفوا به، ليشاركوا في مهزلة تحقيق مع أطر تجمعهم وإياهم نفس الهيئة. لا أحد منهم قال: اللهم إن هذا منكر! و لا أحد منهم قال: كيف نحقق مع زملائنا في حادث يمكن أن يواجه أي منا مثله، ويأتي مفتشون آخرون ليحققوا معنا بدورنا؟

المضحك والمبكي أنه في بعض القطاعات، كالأمن مثلًا، يقوم شرطي عادي بتسجيل مخالفة لأي مواطن كان، ولا يراجعه رؤساؤه في قراره أو يحققوا معه، حتى وإن تجاوز في تصرفه. أنا وزميلي لم نقم سوى بالتنبيه إلى وضع غير سليم قد يترتب عنه تهلكة لبعض التلاميذ. لكن الذي فهمت من المديرية الإقليمية والجهوية، هو أنها تريد من المفتش أن يتبنى مقولة المغاربة "شُوف واسْكت".

لم تتخل عنا الإدارة فحسب، بل أرسلت مفتشين كأنها تسخر منا ومنهم، وبعثتهم ليستجوبوا زملاءهم، كأنها تقول لنا طَّاحْنوا بِنَاتْكم على حد قول المغاربة. لم يخطر ببال هؤلاء المفتشين القادمين من مدينة بني ملال أن هذا المفتش الذي يجلس أمامهم سيكتب يومًا مذكرات غير مسبوقة، ويشير فيها إلى هذه المهزلة. مهزلة أكدت لي مرة أخرى أن بعض المفتشين، حين يرتدون جبة الإدارة، يسعدهم أن ينفذوا –وبمتعة_ أوامرها بانبطاح كامل، حتى ولو كانت المهمة الموكولة لهم ضد زملائهم. ينسون فجأة إطارهم الأصلي، ويتقمصون دور المسؤول الإداري الذي أرسلهم، طبعًا مقابل تعويض لا يسمن ولا يغني من جوع.

كان من المفروض أن يدعمنا المفتشون في نيابة خنيفرة. ما أحسست به هو أن قلوب البعض كانت معنا، والبعض الأخر كانت قلوبهم معنا وسيوفهم ضدنا، بدليل أنه _ ولأسباب غير مفهومة_ نشب بين المفتشين صراع حول البيان البسيط الذي كان من المتوقع أن يصدره المكتب المحلي لنقابة مفتشي التعليم، في شأن ما حدث. ممثل فرع النقابة في خنيفرة، وفي عز الأزمة، رفض القدوم من مدينة أزرو حيث يقيم، ليمهر البيان، بدعوى أنه كان مشغولًا في مراسيم إعداد حفل زفاف لابنته، وابنته طبعًا أهم مما يتعرض له زملاؤه من هجوم غير مسبوق. المكتب الوطني هو من تكفل بالأمر، وأصدر بيانًا تضامنيًا معنا.

بعد أيام قليلة، بعثت إدارة الأكاديمية رسالة ملاحظة. الرسالة كانت موجهة لجميع الأطراف المعنية بهذه النازلة بالتساوي. مضمون وثيقة الملاحظة كما فهمت هو أنني وزميلي كنا مذنبين. جريرتنا هو أننا راسلنا النيابة بخصوص ما عايناه من فوضى في المؤسسة التعليمية المذكورة.

هذا الحادث المؤسف الذي عشته في مدينة خنيفرة، جعلني أقف وقفة تأمل، وأعيد النظر في طريقة عملي، انتهيت إلى أنه علي كي أريح وأرتاح أن أتبنى قول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، مع تحوير في البيت:

_ إذا رأيت أقوامًا قد جهلوا ... فاجهل فوق جهل الجاهلينا.

من ناحية أخرى، ما وقع وافق هواي. وثيقة الملاحظة التي توصلت بها حررتني أخلاقيًا من الاستمرار في لعب دور الدنكيشوت، في وقت يطالبك فيه الكل بغض الطرف عن تلك السلوكات السلبية التي كنا نسجلها كمفتشين في الميدان. الكل يقول لك ضمنيًا "دير السَّربيس وسير بحالك دون مشاكل". عندها قلت للتفتيش ما قاله سيدنا الخضر لموسى عليه السلام: هذا فراق بيني وبينك. و من يومها اقتصرت على المهام الخاصة بالمفتش دون زيادة أو نقصان. التأطير كلما نظمت المديريات دورات تكوينية. إنجاز تقارير صَفِّية بشكل معقول، ويا دار ما دخلك شر على حد قول المصريين.

مديرية أفران

انتقلت من نيابة خنيفرة إلى مديرية أفران سنة 2017. لم أوفق مرة أخرى في العودة إلى مديرية تازة. كانت السنوات تمضي، وخط الوصول إلى سن التقاعد يقترب، وحاولت أن أنهي ما تبقى من حياتي المهنية مستقرًا في بلدتي، لكن شاء القدر أن أمر بمديرية أخرى، كي يتسع المجال لمذكراتي أكثر في الحكي.

قلصت المسافة مرة أخرى نعم، لكن التنقل المرهق ظل أساس ممارسة المهنة، خاصة وأن مديرية أفران كان يعشق المسؤولون فيها عقد الاجتماعات. كان المدير يعقد الاجتماعات لأي سبب كان. اجتماعات أغلبها شكلي، ولم ألاحظ أنها أثمرت ما يفيد قط، بل إننا في بعض الأحيان كنا نعقد اجتماعًا في موضوع ما، وبعد فترة وجيزة نعقد اجتماعًا آخر لنلغي ما تم الاتفاق عليه في الاجتماع السابق. عقدنا مثلًا اجتماعًا بخصوص الزمن المدرسي، صدرت مذكرة وزارية تنص على تعديله، وخرجنا باتفاق. احتجت النقابات على مضمون المذكرة الوزارية. ألغيت المذكرة، و اجتمعنا مرة أخرى لنلغي ما تم الاتفاق عليه. ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي نقرر أمرًا في اجتماع ثم يتم إلغاؤه، فقد تكرر ذلك أكثر من مرة.

المسألة الإيجابية الوحيدة التي استفدت منها في الانتقال إلى مدينة أفران، هي الاستمتاع بجمالها الأخاذ. "محلى أفران ومحلى جمالو" كما تقول الأغنية الشهيرة التي يحفظها أغلب المغاربة. أسرتني هذه المدينة حقًا بحسنها، وتمنيت لو كان بإمكاني أن أقطن بها، لأنها في تقديري من المدن التي تصلح لأن يستقر فيها كل من يعشق خلوة القراءة والكتابة.

المسؤول الذي كان يترأس المديرية الإقليمية وقتها كان معروفًا في مديرية تازة. قضى بها سنوات عديدة. إطاره مفتش اقتصاد. لم يشارك في مباراة التفتيش، لأن المُشرِّع خول لهذه الفئة _ أي المقتصدين_ أن يصبحوا مفتشين، بعد قضاء مدة طويلة في إطار الاقتصاد. كان بين الفينة والأخرى يذكرنا في اجتماعاتنا معه أنه رئيسنا. نعم، رئيسنا ظلمًا وعدوانًا، فقد منح إطار مفتش بالأقدمية، لم يشارك في مباراة التفتيش، ولم يخضع لتكوين في المركز. ولا أحد يعلم كيف أصبح مديرًا إقليميًا. وبما أنه كان مفتشًا بالصدفة، فكعادة المفتشين حين يتحملون مسؤولية إدارية، فقد كان يحلو له أن يذكر زملاءه أنه "الشَّافْ" كما يقول المغاربة، في الوقت الذي كان يجب أن يحدث العكس، لو كانت الوزارة تصحح أخطاءها.

سينتقل هذا المدير، بعد أن أمضى أكثر من أربع سنوات في مدينة أفران، إلى إحدى مديريات مدينة الدار البيضاء، وسيجري عملية جراحية على مستوى القلب، ليحال بعدها إلى التقاعد.

المديـر الجديد الذي عين بعده جاء من مديرية بولمان. كان رئيس مصلحـة في إحـدى المديريـات، ثم تقـدم لمنصب مديـر إقليمي وحصـل عليـه. سـمعته كانت جيـدة في مدينـة بولمـان، والتقيت بزميلة مفتشـة سـبق لها أن عملـت معه هناك، مدحتـه وزعمت أنه يناصـر قضايـا المفتشـين. لكنـه بعد سـنة مـن مزاولتـه لمهامه في مديرية أفران، تبين أن ما رَوَت زميلتي عنه لم يكن صحيحًا.

مـن بيـن المشـاكل التي عانـى منها المفتشـون مع هـذا المدير التأخـر في الحصول على تعويضاتهم المادية. تكوينات أنجزوها، وتصحيـح أوراق مباريـات أطـر الأكاديميـة، لـم تصـرف لهـم تعويضاتها في بعض الأحيان إلا بعد أن احتجوا، ورفضوا تصحيح أوراق مباراة السنة الموالية.

الاسـتبداد بلغ مداه حين قرر هذا المسـؤول صرف تعويضات التنقـل للمفتشـين بطريقـة عجيبـة. زميلـه السـابق كان يصـرف التعويـض مقابل الخروجات والمهام التي يقوم بها المفتش فعليًا، تؤكـد وثيقة تكليـف بمهمة قيامه بها. صاحبنا ألغـى تلك الطريقة، وقـرر أن يكـون التعويـض عن التنقـل جزافيًـا. بمعنـى أن المبلغ المخصص لتنقل المفتشين يقسم عليهم بالتساوي. وبما أن صرف التعويضـات يقوم على هذا الأسـاس، فقد كان مـن المفروض أن يتوصـل المفتشـون جميعًا بنفس المبلغ. لكن السـيد المدير خرق القاعـدة التي وضعها، كأي مسـتبد صغيـر، وراح يمنح لكل واحد

منـا المبلـغ الذي يريد، حسـب هواه، مسـتغلًا الخلافـات المبطنة القائمة بين المفتشين. لم يحتج عليه أي منا، ومرت الأمور بسلام. ذكرنـي تصرف هذا المدير بخلفاء الدولة الأموية والعباسـية، حين كان يدخـل الشـعراء علـى أحدهـم، فيمدحونهم بقصيـدة ترضي غرورهم، فيهب الخليفة للشـاعر المُجيد نفاقًا مبالغ مالية أكثر مما يمنح لشعراء لم يكونوا منافقين بما يكفي.

رئيس مصلحة الشـؤون التربوية، والـذي اختلطت عيله الأمور هـو أيضًا، وأظن أنه كان يتوهم أنه هو المدير الفعلي للمديرية، مع حلم بأن يصبح كذلك. بلغني أنه وبسبب كراهيته لأحد المفتشين، تعمـد أن يوقع تعويضات تنقل هذا الأخير بصيغة المدير السـابق، حتـى لا ينـال المفتـش المغضـوب عليـه المبلـغ المخصـص في التعويـض الجزافي، والذي كان يفـوق المبلغ الذي كان قد حصل عليه هذا المفتش بالصيغة السـابقة. تصرفـات كهذه تؤكد ما كنت ومـا زلت مقتنعًا به، وهو أن معضلة المنظومة التربوية هي مواردها البشـرية. لن نتمكن من إصلاح حال تعليمنا قبل أن نحسـم في أمر القائمين على المنظومة، من الوزير حتى العون البسـيط. لن نصلح منظومتنـا دون فـك الارتباط بالمتدخلين الذيـن لا علاقة لهم بها، والذين قد يكونون سببًا إضافيًا في إفشالها.

سأختم ما عشته في مدينة أفران بحادثين اثنين، أحدهما مؤسف والآخر مأساوي:

الحـادث الأول كان بطلـه رئيـس مصلحـة تأطير المؤسسـات التعليميـة. كتب المسـكين تدوينـة في عهد الوزير سـعيد أمزازي، يقـول فيهـا إن هذا الأخير من بين أفشـل الوزراء الذيـن عُينوا على رأس وزارة التربيـة الوطنيـة. نما الخبر بسـرعة إلى السـيد الوزير، فعزله في رمشـة عين. تأثر الأستاذ بقرار السـيد الوزير، وتركته في حالة نفسية سيئة.

الحـادث الثانـي كان مأسـاويًا حقًا، ويؤكـد أن قطاعات أخرى تعانـي من مشـكلة الموارد البشـرية. تم فـي قطاع مديريـة الأمن. بسـبب رخصة عطلة تقدم بها شـرطي، ورفض رئيسـه توقيعها له، شـب بينهما خلاف، انتهى بأن أفرغ الشـرطي رصاص مسدسه في رأس رئيسه. كان بإمكان الشرطي المغتال أن يتجنب ما حدث، لو كان مرنًا مع مرؤوسـه، لكن هذا شأن بعض المسؤولين في العديد من الإدارات، يعشقون الضغط على من هم أقل منهم رتبة، لتكون النتيجة انفجارًا كارثيًا.

مديرية تازة

أخيـرًا، وبعد أكثر من عقدين مـن الزمن عدت إلى مديرية تازة. غادرتهـا شـابًا، وعـدت إليهـا كهـلًا، لم يعـد يفصلني عـن لحظة التقاعد سـوى ثلاث سـنوات. غياب طويل وزاد ثري من تجارب عشتها وعاينتها، مع من عملت معهم، أو أناس تعرفت عليهم على جادة السفر، من جنوب المغرب حتى شماله.

حيـن وصلـت إلى مديرية تـازة، وجدتها على صفيح سـاخن. تـم إعفاء مديرها، كما تـم إعفاء رئيس مصلحة الشـؤون التربوية. قيلت حول دواعي هذه الإعفاءات إشاعات كثيرة، إلى أي حد هي صحيحة؟ الله أعلم.

وجـدت أغلب المفتشـين الذيـن عرفت وسـمعت عنهم حين كنت في القسم، قد غادروا المهنة وأحيلوا إلى التقاعد، جيل ذهبي ما زال الكثير من الزملاء يتحسـرون على أيامهم، التي كانت تتسم بالنضج والمواقف المشـرفة الشـجاعة التي كانـت تصون للإطار هيبته. ترك هؤلاء الرجـال صراحة فراغًا لافتًا، كانت مهمة التأطير والمراقبـة في عهدهم ربما أفضل حالًا عمـا هي عليه اليوم، لكنها سـنة الحيـاة، يرحل جيل ليأتـي جيل آخر، الظـروف تتغير، وتتغير معها مواقف البشر.

مشاكل مديرية تازة طبعًا لا تختلف عن مشاكل المديريات التي عملت فيها، لذلك لا داعي للخوض فيها مرة أخرى. الملاحظة التي أثارت انتباهي خلال العمل في مديرية تازة، وكنت قد لاحظتها أيضًا خلال السنوات التي قضيتها في مديرية أفران، هي المشاريع التربوية والبيداغوجية التي كانت تسهر الوزارة على تنزيلها على أرض الواقع. كانت إستراتيجية الوزارة _ وما تزال_ هي استدعاء مفتشين من مختلف الأكاديميات، وهم قلة، إلى الرباط لتكوينهم من أجل أن يتقاسموا ما تلقوه في العاصمة مع باقي الزملاء. هذا الانتقاء، أي اختيار المفتشين الذين عليهم الذهاب إلى الرباط، لم يكن يخرج عن دائرة أسماء معروفة ومعتادة. كان من المفروض أن يتداول المفتشون على الاستفادة من التكوين في العاصمة، فالكل يريد أن يشارك، والكل يريد أن يحصل على تعويض التكوين.

لكن وبإصرار عجيب وغريب، كانت نفس الوجوه والأسماء هي التي تستدعى على الدوام. كلما كان هناك تكوين مضمون فيه التعويض، يأتيك نفس الأشخاص، كأنهم هم وحدهم الأقدر على نقل محتوى ومضامين ما تريد الوزارة تصريفه في مؤسساتنا التعليمية إلى زملائهم. هذه الملاحظة لم تكن مقتصرة على أكاديمية فاس مكناس، فقد فوجئنا يوم استُدْعِينا إلى مدينة مراكش لحضور تكوين في بيداغوجيا الإدماج، بمفتشين تقاسموا

معنا ما تلقوه في الرباط. كيف ذهبوا؟ ومن استدعاهم؟ لا أحد من المفتشين الدراويش يعرف. المفتشون الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف لديهم الجواب الشافي عن سؤال كهذا.

الملاحظة الثانية تتعلق بالعنصر النسوي. المفتشات اللائي عملت معهن جعلنني أقتنع أن التفتيش لا جنس له. المفتشات الرائعات رائعات مثلهن مثل المفتشين المتميزين كفاءة وأخلاقًا، والعكس صحيح. الإنسان يبقى رهين تربيته ورقي سلوكه. الإيجابي إيجابي والسلبي سلبي، بغض النظر عن كونه ذكرًا أو أنثى.

سأغادر مهنة التفتيش، على وقع حوافر المدرسة الرائدة، نقعها يصل إلى عنان السماء، المال متوفر بجزالة، والكل متحمس. هل ستحقق هذه البيداغوجيا المبتغى وتخرج المنظومة التربوية من أزمتها؟ أم أن مبلغ ثمانين مليار درهم سيصرف كما صرفت أموال المخطط الاستعجالي، لتكون النتائج هزيلة، أو ربما منعدمة، لتبقى المدرسة المغربية تتخبط في مشاكلها الدائمة؟ الأمر ممل، خاصة أننا لا نضمن ألا يعين وزير جديد، ما يعجبوش الحال، ليقوم بإلغاء مدرسة الريادة، فينفض الجمع، في انتظار استقدام بيداغوجيا أخرى، من وراء البحار، ويبدأ الكل يهلل لها.

أتمنى أن يكون مستقبل المدرسة المغربية أفضل، فالنجاح في بناء البشر أهم رهان تواجهه الأمم، ومن نجح في ذلك فقد حقق النهضة الفعلية لأمته، ومن فشل في بناء موارده البشرية بناءً متينًا

أخلاقيًا وفكريًا، فسيظل يتخبط في وحل التخلف. الصين نموذج لاستثمارها المفيد فيما يقارب المليارين من البشر، وها هي كتسونامي تجتاح العالم اقتصاديًا وعلميًا، مما جعل الولايات المتحدة تعتبرها أكبر خطر يتهدد عرش تربعها على كرسي قيادة العالم.

وأنا أودع مهنتي، أشعر أنني خرجت من سجن الوظيفة، قضيت فيها أربعين سنة، كنت فيها موظفًا، أو بالأحرى مستخدَمًا، والاستخدام على حد رأي عباس محمود العقاد هو رق القرن العشرين. أحمد الله على أنني بلغت سن التقاعد بسلام، و نلت حرية نسبية.

زملائي –مشكورين_ نظموا حفلًا بسيطًا لتكريمي، حضره البعض، ولم يحضره البعض الآخر، بزعم أنهم لم يتوصلوا بالدعوة، وآخرون قرروا عدم الحضور لأسباب تخصهم. ما أثار انتباهي في هذا التكريم أمران اثنان:

الأول هو الهدية اليتيمة التي تلقيت منهم، كانت عبارة عن لوحة لآية قرآنية كريمة، وكنت أستغرب كيف أن المتقاعد على الدوام تقدم له هدايا دينية، بوعي أو بغير وعي. إن الرجل انتهى، ولم يعد أمامه سوى الانتقال ما بين بيته والمسجد.

الثاني هو أن المفتشين لم يخطر ببالهم أن يقدموا لي ولو كتابًا واحدًا، وهم يعرفون ميولي وإنتاجي الأدبي. ما أكد ويؤكد _ كما أسلفت في صفحات سابقة_ غياب الاهتمام بالأدب والفكر لدى أغلبهم.

أظـن أنه علي أن أقف عند هـذا الحد، فقد قلت ما يكفي. أذكر القارئ مرة أخرى أن هذه المذكرات هي مذكرات مفتش، وليست مذكـرات أديب. تلـك المذكرات التي سـتكون بحول الله أوسـع وأشمل، سـأروي فيها ما لم يكتب هنا، تجربة حياة، وساعات بين الكتـب، على حـد تعبير عباس محمـود العقاد، كنت مـع الكتب، وسـأغادر المهنـة لأتفرغ للقـراءة والكتابة بعد تقاعـدي. أخطر ما يواجهـه المتقاعد هو الفراغ. التقاعـد قد يكون حياة أخرى جديدة مُفْعمـة بالبذل والعطـاء، وقد يكـون موتًا بطيئًا قبـل الأوان. الأمر رهين بخطط وتصور المقبل على التقاعد.

سـأغادر أيضًـا والحكومة مقبلة علـى ورش إصـلاح التقاعد، وكمـا علمنـا التاريخ، الإصلاح سـيكون فـي الغالـب الأعم على حسـاب الموظف. خمسـة وستون سنة سـتصبح واقعًا لا مفر منه، خصم نقاط احتسـاب صـرف التقاعـد وارد بقوة. الرفع من نسـبة المساهمة المادية التي على الموظفين تخصيصها لإنقاذ الصندوق مـن الإفلاس، سـتكون مـن بيـن الحلول التـي لن تتـورع حكومة أخنوش عن اتخاذها.

أختـم هذه المذكرات بقول مأثـور للروائي الأمريكي الحاصل علـى جائزة نوبل أرنسـت هيمنجـواي: "لم أكتب إلا مـا رأيت أو سـمعت". أنا بدوري حاولت أن أروي ما عشـته خلال ممارسـتي لمهنتـيَّ كمـدرس ومفتش تربوي. لـم أكتب بهدف الإسـاءة لأي

أحـد، وكل مـا أردته من هـذه المذكرات أن أجترح مـا لم يجترحه مفتـش قبلـي، وأن أترك أثرًا ولو واهنًا على شـاطئ بحر الزمن. قد يبقـى لما كتبت أثر، وقد تغمره ألسـنة أمواج النسـيان. لكن الأكيد أنهـا سـتبقى بعـد رحيلنا حاضرة فـي عقل ووجدان مـن أحببناهم وأحبونا، ومن عرفناهم وعرفونا.

أقول وأنا في الفقرات الأخيرة لهذه المذكرات: لو كان التفتيش شـخصًا لشـكرته، لأنه مكنني من أمرين اثنيـن: الأول أنني بفضله تمكنـت من بلوغ رقم قياسـي في القراءة، ما كنـت لأحققه لو أنني بقيت في القسم.

الأمـر الثاني هـو أن التفتيش مكنني أيضًا مـن الكتابة، وإصدار حتى الآن ثلاثة عشر مؤلفًا، ما بين رواية وقصة قصيرة وسيرة ذاتية وديوان شعر، وكتب أخرى تنتظر.

أتمنـى أن تصل هذه المذكرات إلى كل من عرفتهم، فهي إجابة على العديد من التسـاؤلات، التي أرجو أن يفهمها هؤلاء الزملاء. ومنهـا أن التفتيـش كان لي مجرد محطة في مشـوار حياتي، وليس محطـة نهاية السـير. والأهم مـن كل ذلك أنني كتبـت مذكرات لم يتجـرأ أي من المفتشـين السـابقين على كتابتهـا، لتبقى صرخة في وادٍ، وأثرًا يروي عن تجربتنا المتواضعة.